الأمثال في السنة النبوية

دراسة تحليلة موضوعية

الجزء الأول

دكتور

ياسر محمد شحاته

أستاذ الحديث وعلومه المساعد

بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية

جامعة الأزهر

١٤٢٢هـ ـــ ٢٠٠١ م

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على خير معلم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعـــد:

فإن الأمثال في كل أمة خلاصة تجاربها ومحصول خبرتها، وهي المرآة التي تنعكس على صفحاتها عادات الأمة وأخلاقها وأفكارها، ولهذا كانت دراستها – ولا تزال – من أجدى الدراسات نفعاً وأكثرها فائدة.

وإذا كانت أمثال سائر الناس وعامتهم بهذه المثابة، فلا غرابة في أن تكون أمثال الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر أهمية، وأرفع منزلة، وأعلى شأناً، وأوجز لفظاً، وأدق فكراً، وأبلغ حكمة، وأنصع بياناً، وأكرم معنى.

ولله در الرافعي إذ يقول: [((ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله [1] ، محكمة الفصول ، حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول ، حتى ليس فيها كلمة مفضولة ، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم ، إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، في منــزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتد

١- بينت في كتابي ((بلاغة التحديث)) الأدلة العديدة على كون السنة النبوية وحياً ، فأنظره في موضعه ص ٣٤- ٤٤ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فينـزو بالدماء وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء ....))[١]]

ويقول الجاحظ عن كلامه صلى الله عليه وسلم : ((هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : ((قل ما أسالكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين)) [٢].

كيف لا: وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب [٣]، واستعمل المبسوط في موضوع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج [٤] إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز [٥] ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر [٦] . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً)) [٧].

١- تاريخ آداب العرب ٢٧٩/٢ .
٢ - سورة ص / ٨٦
٣ - التقعيب كالتقعير ، وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه ، المعجم الوسيط ٢/ ٧٧٧ .
١ - الفلج بالفتح وبالتحريك أيضاً: الفوز والظفر، اللسان مادة : فلج .
٢- الهمز: العيب في الغيبة، واللمز : العيب في الحضرة ، المعجم الوسيط ٢/ ٨٧١ ، ١٠٣٤
٣- حصر حصراً ، من باب تعب : عى في كلامه ، المعجم الوسيط ١/ ١٨٥ .
٤- البيان والتبيين للجاحظ ١٧/٢ ، ١٨ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فإذا كان هذا ما قيل في سائر كلامه صلى الله عليه وسلم ، فيكف بنوادر حكمه وغرر أمثاله ؟! ومن ثم فقد اخترت في هذا الكتاب الحديث عن أمثاله صلى الله عليه وسلم ودراستها دراسة تحليلية موضوعية وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع عدة أمور :

الأمر الأول :

إن الأمثال وسيلة هامة في العملية التعليمية، والرسول صلى الله عليه وسلم معلم، بل هو خير المعلمين، يقول الله تعالى: ((لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة....))(١) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : [إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلماً ميسراً] (٢).

ويقول الصحابي الجليل معاوية بن الحكم السلمى رضي الله عنه في تعليمه صلى الله عليه وسلم : [....بأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه] (٣) .

لذلك أولى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الوسيلة التعليمية اهتماماً كبيراً، ويرجع هذا الاهتمام إلى أمرين على قدر كبير من الأهمية:

أولهمـــا:

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الأخذ بمنهج القرآن الكريم ، ومن المعلوم أن القرآن الكريم حافل بالأمثال الكثيرة والمتنوعة ، والتي لا يعقلها إلا العالمون ، يقول الله تبارك وتعالى : ((وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)) (٤) .

ويقول تعالى:

٥- سورة آل عمران / ١٦٤ .

٦ - هذا اللفظ جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق ، باب بيان أن تخيير المرأة لا يكون طلاقاً إلا بالنية ، رقم (٣٦٩٠) .

١- هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة ، رقم (١١٩٩) .

٢- سورة العنكبوت / ٤٣

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

((وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)) [1] ، فالسنة إذن تستهدي بما في القرآن الكريم من أمثال ، وتتخذ هذه الأمثال منهجاً لها في التدريس والتعليم .

يقول الرامهرمزى في كتابه أمثال الحديث: (هذا ذكر الأمثال المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم... وهي بيان وشرح وتمثيل يوافق أمثال التنزيل التي وعد الله عز وجل بها وأوعد، وأحل وحرم، ورجا وخوف، وقرع بها المشركين وجعلها موعظة وتذكيراً ، ودل على قدرته مشاهدة وعياناً ، وعاجلاً وأجلاً ((ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)) (٢) .

وثانيهما:

إن مدرسة النبوة تأخذ بالأمثال في تدريس الحقائق والمفاهيم التي شرعها الله سبحانه وتعالى لأن هذه الأمثال تستطيع أن تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس فيتقبله العقل، لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم ، كما إذا رغب في الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه ، إذا مثل بالنور، وكما إذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، والأمثال فوق ذلك تكشف عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة [3] .

يقول الزركشى : [والمثل أعون شئ على البيان ، فإن قلت : لماذا كان المثل عوناً على البيان ، وحاصله قياس معنىً بشئ ، من عرف ذلك المقيس فحقه الاستغناء عن شبيهه ، ومن لم يعرفه لم يحدث التشبيه عنده معرفة ؟]

---

٣ - سورة الحشر /٢١ .

١- أمثال الحديث ص ٥

٢ - انظر : تفسير الفخر الرازي ٨٠/٢، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم لعلى خليل أبو العنين ص ١٣٧- ١٣٨ ط : دار الفكر، القاهرة ١٩٨٠، والتدريس في مدرسة النبوة للدكتور سراج وزان ص ٢٠٥ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والجـواب : (أن الحكـم والأمثـال تـصور المعـاني تـصور الأشـخاص ، فـإن الأشـخاص والأعيـان أثبـت فـي الأذهـان ، لاستعانة الـذهن فيهـا بـالحواس بخـلاف المعـاني المعقولـة ، فإنهـا مجـردة عـن الحس ولذلك دقت) [1].

ويقول صاحب المنار : [(إن المعاني الكلية تعرض للذهن مجملة مبهمة فيصعب عليه أن يحيط بها ، وينفذ فيها فيستخرج سرها ، والمثل هو الذي يفصل إجمالها ويوضح إبهامها ، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها ، ومشكاة الهداية ونبراسها ، ورحم الله عبدالقاهر الجرجاني إذ قال : (واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً .....) [2]] .

الأمر الثاني

إن لضرب الأمثال تصويراً أخاذا، وفيها تقريب المراد للعقل في تصويره بصورة المحسوس ، وذلك أثبت في الأذهان ، وأسرع إلى إقناع الوجدان .

فالشاعر العربي حين يصور لنا الرجل الأحدب ، والأحدب كما هو معروف كتفاه مرتفعتان وله سنام في ظهره ، ورقبته غائصة بين كتفيه ، وهذا هو الأحدب ، فيصور الشاعر هذه الصورة قائلاً :

قصرت أخادعه وغاص قذالـه * فكأنه متربص أن يصفعـــا**

وكأنمـا صفعت قفاه مـــرة * وأحس ثانية لهـا فتجمعـا**

فإذا قرأنا البيتين فقد تجلت لنا صورة الأحدب ، وصارت واضحة ، فهذا التشبيه يحدث في النفس حركة التفات بارعة ، يلتفت بها المرء من الكلام الجديد إلى صورة المثل المأنوس ، فيلمح ما بينهما من التشابه أو

١- البرهان ١ / ٤٨٧ – ٤٨٨ .
٢- تفسير المنار ١ / ١٩٨- ١٩٩ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

التطابق ، فلا يلبث أن يتلقى الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح ، ويجرى ذلك كله في أقل من لمح البصر ... وهذه الحركة النفسية البارعة ، لها ما لسائر الحركات من تجديد وتنبيه وتنشيط .

يقول الأستاذ محمد قطب: [إن للأمثال في ذاتها جاذبية ليست لغيرها من أنواع التعبير ، والناس تحب المثل وتتأثر به أكثر من الصور المباشرة في التعبير لأن فيه جمالاً فنياً زائداً ... فبدلا من أن يعرض المعنى مباشرة فإنه يعرض معكوساً من خلال مرآة خاصة لا كالمرايا العادية !].

فالمرآة العادية تعكس الشئ في نفس صورته بلا فرق ، ولكن هذه المرآة ذات خصيصة غير عادية فهي لا تعكس الشئ على صورته الأصلية ، وإنما على صورة أخرى مشابهة .. ولكنها أبهي رونقاً ، وأكثر وضوحاً ، وأشد جاذبية ، ومن ثم تعين على تذوق المعنى الأصلي بعقد المقارنة بين الأصل والصورة .

ثم إن هناك متاعاً فنياً ونفسياً في هذه العملية ذاتها: (عملية عقد المقارنة بين الأصل والصورة ! ومن ثم يتضاعف المعنى في الحس حين يصبح أصلاً وصورة، كل منهما قائم بذاته، ومتصل بالآخر في ذات الوقت، ويجد الإنسان متعة في تملي المعنى بخياله بدلاً من أن يتملاه بذهنه فحسب....) [١].

ومن ثم كانت الأمثال أحد طرائق التعبير والتصوير الأساسية في الأحاديث النبوية التي تخرج ما لا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه ، وما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة ، وما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، وما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة .

الأمر الثالث :

إن الأمثال تثير في النفس محور الطمع والرغبة ، أو محور الخوف والحذر ، لما تشتمل عليه من حث وزجر وتذكير ووعظ ، الأمر الذي يدفع النفوس الطيبة إلى الفضيلة ويمنعها من الرذيلة ، ويحبب إليها الصلاح ويبغض إليها الفساد .

١- دراسات قرآنية ص ١٦٩ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يقول الدكتور أحمد العمري : [ويضرب المثل للترغيب في الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس ، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق في سبيل الله ، حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير فقال :

((مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم))(١)] .

ويضرب المثل للتنفير: حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس ، كقوله تعالى في النهى عن الغيبة ، **((ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه))** [٢].

ولذلك عد الإمام الشافعي ضرب الأمثال مما يجب معرفته على المجتهد ، فقال : (ثم معرفة ما ضرب فيه – أي القرآن – من الأمثال الدوال على طاعته ، والمثبتة لاجتناب معصيته ، وترك الغفلة عن الحفظ ، والازدياد من نوافل الفضل)[٣] .

هذا وقد كنت أعددت بحثا سابقا عن الأمثال في السنة النبوية ، عرفت فيه بالأمثال وذكرت أهميتها من خلال اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية والعلماء بها ، وبينت أنواعها على وجه العموم ، وذكرت أنها تنقسم إلى مثل سائر ، ومثل قياسي ، ومثل خرافي ، وذكرت أن المثل الخرافي لا وجود له في السنة ، لأن السنة صدرت عن نبينا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، ثم مثلت لكل نوع من النوعيين الآخرين بعشرة أمثلة من السنة ، ذاكرا حول كل مثل ما جادت به قريحة العلماء فيه ، ثم ختمت البحث بأهم المؤلفات في الأمثال النبوية .

وقد تبين لي من خلال ذلك : أن الأمثال النبوية تمثل ذروة سنام البيان النبوي ، وهذا ما دعاني إلى تناولها بالدراسة التحليلية الموضوعية ، ومن ثم كان هذا الجزء الذي يمثل باكورة هذا العمل .

وقد قدمت لهذه الدراسة بخلاصة ما ذكرته في البحث السابق مهذبا ما اقتضاه التهذيب ومضيفا إليه :

٢- سورة البقرة / ٢٦١ .
١- سورة الحجرات / ١٢
٣- البرهان ٤٨٦/١

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١- الفرق بين المثل والحكمة .

٢- ما جادت به القريحة فيما استجد لدى من أهمية الأمثال .

٣- الآثار التربوية للأمثال في السنة النبوية .

ثم كانت الدراسة التحليلية الموضوعية لبعض الأمثال ، واعدا بإتمامها – إن شاء الله تعالى – إذا مد الله في العمر ، وأمهل في الأجل .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؛؛؛

تعريف المثل

المثل لغة : يقول ابن فارس : (الميم والثاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشئ للشئ ، وهذا مثل هذا ، أي نظيره ... والمَثَل : المثل ، كشَبَه وشِبه ، والمثل المضروب مأخوذ من هذا ، لأنه يذكر موري به عن مثله في المعنى ....))[١] .

وقال في اللسان: (والمثل والمثيل، كالمثل، والجمع : أمثال ... والمثل: الشئ الذي يضرب لشئ مثلاً فيجعل مثله، وفي الصحاح: ما يضرب به من الأمثال....) [٢].

ومثل فلان فلاناً : صار مثله يسَّد مسده ، ويقال : مثل فلاناً فلانا ، وبه : شبهه به وسواه .....))[٣] .

وللمثل معان أخرى متقاربة نص عليها اللغويون والمفسرون منها : النظير ، والحجة ، والآية ، والعبرة ، والعظة ، والقصة ذات الشأن ، والصفة الغريبة [٤].

---

١ - معجم مقاييس اللغة ٥/ ٢٩٦ .

٢- اللسان ، مادة : مثل

٣ - المعجم الوسيط ، مادة ، مثل

٤- انظر : اللسان ، تاج العروس ، والقاموس المحيط ، والمعجم الوسيط ، بصائر ذوى التمييز ، جميعها مادة : (مثل) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وهناك صلة وثيقة بين المثل – بالكسر وسكون – والمثل – بفتح الميم والثاء ، فهما بمعنى كالشبه والشبه ، غير أنهما قد يفترقان في نحو قولك ، أخوك مِثْلك ، أي يشبهك ، ولا يقال فيه : أخوك مَثَلك .

يقول ابن العربي : [المثل بفتح الميم ، والمِثْلُ : عبارة عن تشابه المعاني المعقولة ، والمثل بكسر الميم وإسكان الثاء : عبارة عن تشابه الأشخاص المحسوسة ، ويدخل أحدهما على الآخر][1] .

المثل اصطلاحاً : عنى بالأمثال جمع غفير من مختلف علماء المسلمين ، فتحدث عنها اللغويون ، والمفسرون ، والبلاغيون ، وجماع الأمثال ، وغيرهم ، ومع ذلك لم يتهيأ لأي منهم أن يصل إلى تحديد مصطلح جامع مانع لها ، وما ذلك إلا لأن اللفظ كان قد أطلق على أنماط عديدة متباينة من التغيير ، ودورنا هنا أن ننقل بعض عباراتهم ثم نصل من وراء ذلك إلى المعنى الأقرب الذي يلاءم هذا البحث .

يقول المبرد : (المثل : مأخوذ من المثال ، وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه ، فقولهم ، مثل بين يديه ، إذا انتصب ، معناه : أشبه الصورة المنتصبة ، وفلان أمثل من فلان ، أي : أشبه بما له من الفضل : والمثال : القصاص ، لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول ، فحقيقة المثل : ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول) [2]

وقال المرزوقي : (المثل : جملة من القول ، مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها ، تتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه ، إلى كل ما يصح قصده بها ، من غير تغيير يلحقها في لفظها ، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني فلذلك تضرب ، وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها) [3].

١- عارضة الأحوذي ٣/٦ . ط : دار الفكر .
٢ - مجمع الأمثال : المقدمة .
٣ - المزهر في علوم اللغة للسيوطي / ٤٨٧ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقال الراغب : (والمثل : عبارة عن قول في شئ يشبه قولاً في شئ أخر بينهما مشابهه ليبين أحدهما الآخر ويصوره نحو قولهم : الصيف ضيع اللبن ، فإن هذا القول يشبه قولك ، أهملت وقت الإمكان أمرك .

وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال فقال : ((وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)) (١) وفي أخرى ((وما يعقلها إلا العالمون)) (٢).

والمثل يقال على وجهين :

أحدهما: بمعنى المِثل نحو شِبهٍ وشَبَهٍ ونِقضٍ ونَقَضٍ، قال بعضهم ، وقد يعبر بهما عن وصف الشئ نحو قوله : ((مثل الجنة التي وعد المتقون)) (٣).

والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، وذلك أن الند يقال فيما يشارك في الجوهر فقط ، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط ، والمساوي يقال فيما يشارك في الكمية فقط ، والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط ، والمثل عام في جميع ذلك(٤) .

وذهب علماء البيان إلى أن المثل : هو المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله على سبيل الاستعارة التمثيلية ، كقولك للمتردد في فعل أمر : مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى (٥).

وقيل في ضابط المثل : إنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً (٦) ، والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد ، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً .

١- سورة الحشر / ٢١ .
٢- سورة العنكبوت / ٤٣ .
٣- سورة الرعد / ٣٥
٤- المفردات صـ ٢٦٤ .
٥- مفتاح العلوم للسكاكي صـ ١٨٧ ، علوم القرآن للدكتور عبدالله شحاته ص ١٦٩ .
١ - دراسات في القرآن والسنة للدكتور أحمد جمال العمري صـ ١١٢.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإذا نظرنـاً إلـى أمثـال القـرآن والحـديث وجـدنا أنـه لا يـستقيم حملهـا علـى أصـل المعنـى اللغـوي الـذي هـو الـشبيه والنظيـر ، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا فـي الأمثـال ، إذ ليـست أمثـال القـرآن والحـديث أقـوالاً استعلمت علـى وجـه تـشبيه مضربها بموردها ، ولا يستقيم حملها على معنـى الأمثـال عند علمـاء البيان ، فمن أمثال القرآن والحديث مـا ليس باستعارة ، ومـا لـم يفش استعماله ، ولذا كان الـضابط الأخير أليق بتعريـف المثل فـي القرآن والحديث ، فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس ، سواء كانت تشبيها أو قولاً مرسلاً .

يقول الألوسي: [المثل – بفتحتين – كالمثل – بكسر فسكون – والمثيل في الأصل: النظير والشبيه، وكأنه مأخوذ من المثول – وهو الانتصاب، ثم أطلق على الكلام البليغ الشائع الحسن، المشتمل: إما على تشبيه بلا شبيه، أو استعارة رائعة تمثيلية وغيرها، أو حكمة وموعظة نافعة، أو كناية بديعة، أو نظم من جوامع الكلم الموجز [1] .]

****

الفرق بين الحكمة والمثل

قبل بيان الفرق بين الحكمة والمثل، يلزم أن نعرف بالحكمة كما سبق وأن عرفنا بالمثل ، فأقول وبالله تعالى التوفيق .

قال الإمام الحسن اليوسي :

[... الحكمة هي فعلة من الحُكم أو الإحكام، أما الحكم فيرد بمعنيين:

أحدهما: القضاء، يقال : حكم الشارع ، أو القاضي بكذا حكماً بضم فسكون.

---

٢ - روح المعاني (١/ ١٦٣)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الثاني : العلم ، يقال حكم حكماً وحكمة ،

<u>وأما الإحكام فيكون أيضاً بمعنيين :</u>

أحدهما: الإتقان ، يقال : أحكم فلان كذا إحكاماً إذا أتقنه .

الثاني: المنع ، يقال : أحكمت السفيه وحكمته أيضاً أي منعته وأخذت على يده ...

وقال الراغب: الحكمة: إصابة الحق بالقول والفعل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء، وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله ((ولقد آتينا لقمان الحكمة)) ونبه على جملتها بما وصفه بها .

والعبارات عنها كثيرة، ولا حاجة إلى التطويل بها، فإن مرجعها شئ واحد، وإنما سبب الاختلاق كثرة اللوازم والخواص، فعبر كل عنها بما حضره من خواصها .....

والأقرب – يعني من معانيها – المنع ، ولا يبعد أن يكون الإحكام الذي هو الإتقان من المنع أيضاً ، كان المُحكَم قد مُنع من الاختلال والفساد ، وأبعد عن مظانّ العيب والاعتراض ، وتقدم أن الحكم الذي هو القضاء هو أيضاً منع للظالم ، فصارت المادة كلها من المنع ، والله أعلم .

وإذا تتبعنا المعاني المقولة في الحكمة تلخص من ذلك أنها تتعلق بالقلوب ، وبالجوارح من الأيدي والألسنة ، أما في القلوب ، فعلى معنى الإصابة في اعتقاداتها وتصورها للأشياء .....

وأما في الأيدي فعلى معنى الإصابة في أفعالها ، وإتقان صنائعها .. وأما في الألسنة فعلى الإصابة في التعبير عن المعاني ، بإصابة المحز ، وتطبيق المفصل .

ولابد في هذا كله عند إطلاق لفظ (**الحكمة**) .

[**وقد قيل :** أنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء في الجسد ، قلوب اليونان ، وألسنة العرب ، وأيدي أهل الصين ، وما ذلك إلا لاختصاص

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

اليونان بمزية التبحر في علم الأشياء ، ومعرفة القوانين ، وإتقان البراهين ، واختصاص أهل الصين بمزية عمل الصنائع العجيبة ، وإتقان الأعمال الغريبة ، واختصاص العرب بمزية إبانة المعاني العجيبة ، والأمثال والمواعظ المفيدة ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : **{ إن من الشعر لحكمة }**[1] ، ودخل العجاج على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاج ، بلغني أنك لا تقدر على الهجاء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، من قدر على تشييد الأبنية ، أمكنه خراب الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزاً يمنعنا من أن نظلم ، وإن لنا حلماً يمنعنا من أن نظلم ، فعلام الهجاء ؟ فقال عبد الملك: لكلماتك أشعر من شعرك، فأني لك عز يمنعك من أن تظلم ، قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحلم الذي يمنعك من أن تظلم ؟ قال : الأدب المستطرف ، والطبع التالد . قال : يا عجاج ، لقد أصبحت حكيماً ، قال : وما يمنعني وأنا نجي أمير المؤمنين ؟] .

<u>ويتضح مما سبق أن الفرق بين المثل والحكمة ، يظهر في ثلاثة أمور :</u>

<u>أحدهما</u> : أن الحكمة عامة في الأقوال والأفعال ، والمثل خاص بالأقوال

<u>ثانيها</u> : أن المثل وقع فيه التشبيه ، والحكمة قد يقع فيها التشبيه ، وقد لا يقع فإذا وقع فيها التشبيه اجتمعت مع المثل ، وإلا فاختلفت عنه .

<u>ثالثها</u> : أن المقصود من المثل الاحتجاج ، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ .

ولا يبعد أن يقال بعد ذلك : إن المثل هو من الحكمة ، فهي تعمه ، وتعم غيره .

١- أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، رقم (٦١٤٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومن هنا قرر الإمام أبو هلال العسكري ، صاحب كتاب **((جمهرة الأمثال))** أن كل حكمة سائرة تسمى مثلاً .....

فالكلمة إذا شاعت ، وانتشرت ، وكثر دورانها على الألسنة ، تكون مثلاً ، أما إذا كانت الكلمة صائبة ، وصادرة عن تجربة ، ولم تدر على الألسنة ، فتسمى **(حكمة)** .

ويلخص الإمام الحسن اليوسي القول في الفرق بين الحكمة والمثل ، فيقول :

[والحق : أن من الأمثال ما لا يشتبه بالحكمة في ورد ولا صدر ، نحو : **(الصيف ضيعت اللبن)** ، ومن الحكم ما لا يشتبه بالمثل ككثير من الحكم الإنشائية ، ويبقى وراء ذلك وسط يتجادل فيه الفريقان ، فمنها ما يعد مثلاً تارة ، وحكمة تارة ، ولا فرق فيما يظهر إلا بالحيثية ، وهي أنها إن سيقت ملاحظاً فيها التشبيه فمثل ، وإن سيقت ملاحظاً فيها التنبيه أو الوعظ أو إثبات قانون أو فائدة ينتفع بها الناس في معاشهم أو معادهم فحكمة ، وهذا معروف بالاستقراء وشاهده الذوق بعد معرفة أن مرجع الحكمة الإصابة ، ومرجع المثل التشبيه ، حتى إن من يضرب للناس أمثالاً غريبة ينتفعون بها يصح أن يقال : أنه حكيم لأنه مصيب في ذلك المثل الذي ضربه ، وكذلك من صور صورة المسدس مثلاً عد منه ذلك تمثيلاً من حيث التشبيه ، وحكمة من حيث الإصابة والإتقان ، ولا تنافي بين الغرضين ، ومن وسع نطاق هذا الاعتبار أمكنه في كل مثل وحكمة هذا المقدار] .[1]

****

١ - ((زهر الأكم في الأمثال والحكم)) ١/ ٢٥ – ٣٠ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أنواع الأمثال

إذا أمعنا النظر وقلبنا الطرف في الأمثال الواردة في السنة النبوية ألفيناها وردت على أربعة أنواع :

النوع الأول : أمثال ظاهرة مصرحة : وهي تلك الأحاديث التي صرح فيها بلفظ المثل ، أو ما يدل على التشبيه ، ويلمح فيها معنى المثل وصورته ، بشكل بين واضح .

مثل: قوله صلى الله عليه وسلم: **(إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)** [1].

النوع الثاني : أمثال خفية كامنة : وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل ، بل يلمح معناه بصورة خفية ، كقوله صلى الله عليه

---

١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم رقم (٣٥٣٤) ،ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، رقم (٥٩٦١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وسلم في التمثيل لفضل الإحسان : (اليد العليا خير من اليد السفلى) [1].

وكقوله لبيان فضيلة تكاتف المسلمين واتحاد مشاربهم : **(يد الله مع الجماعة) [2].**

النوع الثالث : أمثال مرسلة : وهي عبارة عن جمل ، أرسلت إرسالا ، من غير تصريح بلفظ التشبيه ، ثم جرت مجرى الأمثال ، وتسمى بالأمثال السائرة ومن ذلك ، قوله صلى الله عليه وسلم : **(الحرب خدعة)[3] .**

وقوله صلى الله عليه وسلم : **(لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) [4] .**

النوع الرابع : أمثال قصصية : وهي عبارة عن تلك الأمثال ، التي اتخذت شكلاً قصصياً ، إلا أن المدلول أو المغزى المثلي فيها بين ، إذ غالبا ما تقوم على تمثيل حالة قائمة ، بصورة تاريخية معروفة ، لبيان سنة الله في عباده ، والترغيب والترهيب ، والوعظ والتذكير .

ومن أمثلة ذلك ما رواه الخرائطي عن علي قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن شئ فأراد أن يفعله قال : نعم ، وإذا أراد أن لا يفعله سكت ، وكان لا يقول لشئ لا ، فأتاه أعرابي ، فسأله فسكت ، ثم سأله فسكت ، ثم سأله فقال النبي : (سل) كهيئة المنتهر له ، (سل ما شئت يا أعرابي) .

فغبطناه وقلنا : ((الآن يسأله الجنة ، فقال : أسألك راحلة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لك ذلك) ثم قال : (سل) قال : ورحلها ، قال : (لك ذاك) ثم قال : (سل) قال أسألك زاداً ، قال :

---

٢ - أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الزكاة ، باب في الاستعفاف ، رقم (١٦٤٨) .
٣ - أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة ، رقم (٢١٦٦) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه .
١ - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب الحرب خدعة ، رقم (٣٠٣٠) ومسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب جواز الخداع في الحرب رقم (٤٥٣٩) .
٢ - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين رقم ٠ ٦١٣٣) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الزهد والرقائق ، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين رقم (٧٤٩٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

(وذاك لك) ، قال فعجبنا من ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أعطوا الأعرابي ما سأل) ، قال فأعطى ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : (كم بين مسألة الأعرابي وعجوز بني إسرائيل ؟) ، ثم قال : (إن موسى لما أمر أن يقطع البحر ، فانتهى إليه ضرب وجوه الدواب ، فرجعت ،فقال موسى : ما لي يا رب ، قال : إنك عند قبر يوسف ، فاحمل عظامه معك ، قال : وقد استوى القبر بالأرض ، فجعل موسى لا يدري أين هو ، فسأل : هل يدري أحد منكم أين هو ؟ فقالوا : إن كان أحد يعلم أين هو فعجوز بني فلان ، لعلها تعلم أين هو ، فأرسل إليها موسى ، فانتهى إليها الرسول ، قالت : ما لكم ؟ قالوا : انطلقي إلى موسى ، فلما أتته قال لها : تعلمين أين قبر يوسف ؟ قالت : نعم ، قال فدلينا عليه ، قالت : لا والله حتى تعطيني ما أسألك قال لها : لك ذلك ، قالت : فإني أسألك أن أكون معك في الدرجة التي تكون فيها في الجنة ، قال : سلى الجنة ، قالت : لا والله لا أرضي إلا أن أكون معك ، فجعل موسى يُرادُّها ، قال : فأوحى الله تعالى إليه : أن أعطها ذلك ، فإنه لا ينقصك شيئاً ، فأعطاها ، ودلته على القبر ، فأخرجوا العظام وجاوزوا البحر))[1] .

*****

١- المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ص ١٤٠ ، ١٤١ رقم (٣١١)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

معنى (ضرب الأمثال)

نقول: ضرب الله سبحانه لعباده الأمثال: وضرب الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته الأمثال، وضرب الحكماء والعلماء والمؤدبون الأمثال.

فما معنى: **((ضرب الأمثال))** ؟ والجواب من عدة وجوده:

١- قد يكون أخذ من معنى (الضرب في الأرض) أي السير فيها، قال تعالى: ((... وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله)) [١] . ومعنى: **(ضرب الأمثال)** على ذلك: جعله ينتشر ويذيع في البلاد والعباد، أو جعله يسير في الكلام وينتشر ويشتهر.

والمعنى، وإن كان قريب المأخذ، لكن يبعده أن ضرب المثل جاء متعدياً بنفسه، كما قال تعالى: **((وضربنا لكم الأمثال...))** والضرب في الأرض جاء متعدياً بحرف الجر ... واختلاف التعدي ينقل الفعل من باب في المعنى إلى باب ...

١- سورة المزمل / ٢٠

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٢- وقد يكون بمعنى نصبه للناس بإشهاره ، لتستدل عليه خواطرهم ، كما تستدل عيونهم على الأشياء المنصوبة ، ويكون اشتقاقه من قولهم : **((ضربت الخباء))** إذا نصبته ، وأثبت طنبه .

ومنه قوله تعالى : ((كذلك يضرب الله الحق والباطل ....))[١] أي ينصب منارهما ، ويوضح أعلامهما ، ليعرف المكلفون الحق بعلاماته ، فيقصدوه ، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه [٢].

٣- وقد يكون ضرب المثل بمعنى صنعه وإنشائه من ضرب اللبن ، وضرب الخاتم [٣].

٤- وجاء من معاني الضرب :

قال في الصحاح : ((وضرب الله مثلا)) أي وصف وبين [٤].

وتقول [صار الشئ ضربة لازب] لأي لازماً ثابتاً [٥].

- وما نقلته من معنى هذه المادة متصل متقارب ، إذ لا تعارض بينها ، وهي تتصل بمعنى ضرب الأمثال[٦] ، وأرجح أن يكون أظهر الأقوال في ضرب المثل أنه إحكام صنعته وإنشائه ليكون الممثل مماثلا للممثل به ، ومناسباً له وملائماً ...

****

٢- سورة الرعد / ١٨٧ .
٣- انظر : تلخيص البيان للشريف الرضي صـ ١٧٨ .
١- انظر مقدمة ((الأمثال في القرآن الكريم)) ، للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، بتحقيق الأستاذ سعيد محمد نمر الخطيب .
٢- أنظر : ((الصحاح)) للجوهري ، ١٦٨/١ و ٢١٩.
٣ - انظر : ((القاموس المحيط)) للفيروز آبادي ، ١٣٢/١ .
٤ - يدلك على ذلك قول الإمام الراغب في المفردات : ((الضرب إيقاع شئ على شئ ولتصور اختلاف الضرب خولف بين تفاسيرها .... وضرب الأمثال هو من ضرب الدراهم وهو ذكر شئ أثره يظهر في غيره .....)) انظر المادة ، ص ٢٩٤ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أهمية الأمثال

للمثل في الكلام أهمية كبيرة ، ومكانة هامة ، ووظيفة لا تنكر فائدتها ، فله تأثير عجيب في الآذان ، وتقرير غريب لمعانيها في الأذهان .

قال إبراهيم النظام : (يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة)[١] .

ولقد كثرت الأمثال في القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ولا يستطيع باحث أن يتغافل عن ورودها فيهما ولا على ما يترتب على ذلك من شرف مكانتها وسمو منزلتها ، إذ لولا عظم شأنها لما تضمناها فضلاً عن إكثارهما منها .

يقول الأستاذ أحمد بدوي : (ويهدف التشبيه في القرآن الكريم إلى ما يهدف إليه كل فن بلاغي فيه ، من التأثير في العاطفة ، فترغب أو ترهب ، ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه ، الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً ، ويصور وقع الدعوة على قلوبهم ، وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض) [٢].

فها هو القرآن الكريم يمثل وهن ما اعتمد عليه المشركون من عباداتهم غير الله وهنا لن يفيدهم فائدة ما ، فهم يعبدون ويبذلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدي ، فوجد في العنكبوت ذلك الحيوان الذي يتعب نفسه في البناء ، ويبذل جهده في التنظيم وهو لا يبني سوى أوهن البيوت وأضعفها ، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر

---

١ - مجمع الأمثال ص (٦/١)
٢- من بلاغة القرآن ص ٢٠٤ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المعنوي ، فزادته وضوحاً وتأثيراً ، قال تعالى : ((مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)) [1].

فهال المشركين أن تمثل آلهتهم ، التي ظلوا لها عاكفين ببيت العنكبوت ضعفا ووهنا وهم لا يرون أو هي منه ، وآلمهم أكثر من ذلك أنهم لا يستطيعون رد ذلك عنها أو نقضه فليس لديهم ما يرونه مقنعاً لهم فضلا عن أن يقنع خصومهم من المسلمين بقوتها وقدرتها ، وإذا كان بينهم من يكابر في ذلك ، فقد قطع الله عليه مكابرته بقوله : ((يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب))[2].

وهم يدخلون على الآلهة ويرون الذباب عليها ولو وقف على وجه أحدهم لطرده ، ويرون الأصنام غير قادرة على ذلك ويتردد صدى الآية الكريمة في آذانهم شاؤوا أم أبوا ، وتشتعل نار الغيظ في نفوسهم ، ويتمنون لو لم يكن الذباب قد خلق ، أما وقد خلق فياحبذا لو كانت الأصنام قادرة على التصرف معه ، أو على الأقل ليت أن الله لم ينتبه إلى ضعفها عنه وعجزها إزاءه فلا يقرنها به ، وإذا لما كان بوسع المسلمين أن يتسلطوا عليهم بهذا السوط الذي ألهب ظهورهم إلا أن شيئاً من ذلك لم يكن ، فهاهم المسلمون يقرعون آذانهم بما لا تهوى ، فما عساهم أن يفعلوا ؟!.

وضرب الله مثلاً للموحد والمشرك فقال : ((ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون))[3] .

يقول ابن القيم: [هذا مثل ضربة الله سبحانه للمشرك والموحد ، فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحنون ، والرجل المتشاكس : الضيق الخلق ، فالمشرك ، لما كان

١- سورة العنكبوت /٤١ .
٢- سورة الحج / ٧٣ .
١- سورة الزمر / ٢٩ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يعبد آلهة شتى شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين ، والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد لرجل واحد ، قد سلم له ، وعلم مقاصده ، وعرف الطريق إلى رضاه ، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه ، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه ، مع رأفة مالكه به ، ورحمته له ، وشفقته عليه ، وإحسانه إليه ، وتوليه لمصالحه ، فهل يستوي هذان العبدان ؟ .

وهذا من أبلغ الأمثال ، فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحة ما لا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون))[١] .

ويصور لنا القرآن الكريم حال الكافرين ، وقد استمعوا إلى دعوة الداعي ، فلم تثر فيهم تلك الدعوة رغبة في التفكير فيها ، لمعرفة ما قد تنطوي عليه من صدق ، وما قد يكون فيها من صواب ، بل يحول بينهم وبين ذلك الكبر والأنفة ، وما أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئاً ، ولم يطرق أذنه عنها نبأ ، بل ما أشبههم بمن في أذنه صمم ، فهو لا يسمع شيئاً مما يدور حوله ، وبمن أصيب بالبكم ، فهو لا ينطق بصواب اهتدى إليه ، وبمن أصيب بالعمى ، فهو لا يرى الحق الواضح ، وبذلك شبههم القرآن فقال :

((ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كان لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم)) [٢].

وقال : ((ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى ، فهم لا يعقلون))[٣] .

ويضرب الله مثلاً لأعمال الكافرين فيقول تعالى : ((مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شئ ، ذلك هو الضلال البعيد)) [٤].

---

٢ - إعلام الموقعين ١ / ١٨٧ .
١- سورة الجاثية / ٨٠٧ .
٢- سورة البقرة / ١٧١ .
٣ - سورة إبراهيم / ١٨ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فشبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف ، فشبه سبحانه أعمالهم – في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباء المنثور لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان ، وكونها لغير الله عز وجل وعلى غيره أمره – برماد طيرته الريح العاصف فلا يقدر صاحبه على شئ منه وقت شدة حاجته إليه ، **فلذلك قال** : ((لا يقدرون مما كسبوا على شئ)) ، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شئ ، فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، موافقاً لشرعه ، والأعمال أربعة ن فواحد مقبول وثلاثة مردودة ، فالمقبول : الخالص الصواب ، فالخالص أن يكون لله لا لغيره ، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله ، والثلاثة المردودة ما خالف ذلك .

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع ، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا ، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار ، وبها تسعر النار على أصحابها ، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً ، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً ، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رماداً ، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار [1].

ويقول الله تعالى في حق المنافقين :

((مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين ....)) (٢)

فضرب الله للمنافقين بحسب حالهم مثلين : [مثلاً ناريا ، ومثلاً مائيا ، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة ، فإن النار مادة النور ، والماء مادة الحياة ، وقد جعل الله سبحانه

---

١ - إعلام الموقعين ١ / ١٧١ .
٢ - سورة البقرة / ١٧ -٢٠ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الوحي الذي أنزله من السماء متضمناً لحياة القلوب واستنارتها ولهذا سماه روحاً ونوراً ، وجعل قابليه أحياء في النور ، ومن لم يرفع به رأساً أمواتا في الظلمات ، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي وأنهم بمنزلة من أستوقد ناراً لتضئ له وينتفع بها ، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به ، وانتفعوا به ، وأمنوا به ، وخالطوا المسلمين ، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة في قلوبهم من نور الإسلام طفئ عنهم ، وذهب الله بنورهم ، ولم يقل بنارهم ، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق ، فذهب الله بما فيها من الإضاءة ، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، فهذا حال من أبصر ثم عمى ، وعرف ثم أنكر ، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه ، فهو لا يرجع إليه ، ولهذا قال ((فهم لا يرجعون)) ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي ، فشبههم بأصحاب صيب – وهو المطر الذي يصوب ، أي ينزل من السماء – فيه ظلمات ورعد وبرق ، فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق ، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق ، فلضعفه وخوره جعل إصبعيه في أذنيه ، وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه [1] ، واختيار كلمة (**يجعلون**) وإيثارها على يضعون مثلاً ، للإشارة إلى أن أصابعهم لطول ما صارت في آذانهم ، أصبحت كأنها مركبة معها ، أما الوضع فلا يستفاد منه هذا الثبات والاستمرار ، وبرغم أن المعنى على أن كل فرد منهم يضع إصبعاً في أذن ، لا نستطيع أن نبعد عن أنفسنا هذا الجو الذي خلقه حولنا استخدام الجمع ، والموحى بمقدار الهلع الذي أصاب أفئدهم ، لهذا الصوت المنكر ، حتى لكأنهم يريدون إبعاده ، بوضع كل ما يملكون من أصابع في آذانهم ، وجمع الصواعق إيذان بما اصطلح على إزعاجهم من صواعق رهيبة ، لا صاعقة فحسب ، وكلمة ((**حذر**)) تدل على شدة شعورهم بقرب الموت منهم ، وإسناد الإحاطة إلى الله فيه من الجلال والرهبة ما فيه ، واختيار كلمة محيط يدل على شمول العذاب لهم ،

---

١ ـ إعلام الموقعين ١ / ١٥٠ – ١٥١ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لهم ، وإحاطته بهم من كافة الأرجاء ، فهم لا يستطيعون الإفلات منه أينما ساروا ، وفي إيثار كلمة الكافرين على المنافقين ، بيان لحقيقة حالهم ، وأن النطق باللسان لا يغنى عن الحق شيئاً [١].

وهكذا يكثر القرآن الكريم من ضرب الأمثال للكافرين والمنافقين ، بل والمؤمنين ، ويبين أن الحكمة من ضرب الأمثال أن يتفكر الناس فيها ، فيفهموا الشئ بنظيره ، فيقول تعالى :

((وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)) [٢] ونظيره : ((ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون)) [٣].

ويبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم ، وهو قوله تعالى ((وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون))[٤] .

وبين في موضع آخر أن المثل المضروب يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه ، وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته ، وهو قوله :

((فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ، يضل به كثيراً ، ويهدي به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين))[٥] .

وبين في موضع آخر أنه تعالى لا يستحي أن يضرب مثلا ما ، ولو كان المثل المضروب بعوضة فما فوقها ، قيل فما هو أصغر منها لأنه يفوقها في الصغر ، وقيل فما فوقها أي فما هو أكبر منها ، وهو قوله :

((إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها)) [٦].

<u>ولذلك ضرب المثل بالعنكبوت في قوله :</u>

---

١ ـ من بلاغة القرآن ص ٣٣، ٣٤.
٢ ـ سورة الحشر / ٢١
٣ـ سورة إبراهيم / ٢٥.
١ـ سورة العنكبوت / ٤٣.
٢ ـ سورة البقرة / ٢٦.
٣ ـ سورة البقرة / ٢٦ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

((مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)) [1].

وضربه بالحمار في قوله : ((كمثل الحمار يحمل أسفاراً)) [2].

وضربه بالكلب في قوله :

((فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث))[3] ، إلى غير ذلك

يقول ابن القيم : ((وقد ضرب الله ورسوله الأمثال للناس ، لتقريب المراد وتفهيم المعنى ، وإيصاله إلى ذهن السامع ، وإحضاره في نفسه ، بصورة المثال الذي مثل به ليكون أقرب إلى تعقله وفهمه ، وضبطه واستحضاره ، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه ، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير .... فالأمثال شواهد المعنى المراد ، وهي خاصية العقل ، ولبه وثمرته)) [4].

وذكر الزركشي بعض فوائد ضرب الأمثال فقال : (وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير ، والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وترتيب المراد للعقل ، وتصويره في صورة المحسوس ، بحيث تكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس ، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره ، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر ، قال تعالى : ((وضربنا لكم الأمثال)) فامتن علينا بذلك لما تضمنه من الفوائد [5].

ونقل السيوطي عن الشيخ عز الدين قوله : ((إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً ، فما أشتمل منها على تفاوت في

---

٤ - سورة العنكبوت / ٤١ .
٥- سورة الجمعة / ٥
١- سورة الأعراف / ١٧٦ .
٢ - أعلام الموقعين (١/ ٢٩١)
٣- البرهان ١/ (٤٨٦ – ٤٨٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الثواب ، أو على إحباط عمل ، أو على مدح أو ذم ، أو نحوه ، فإنه يدل على الأحكام)) [1].

وإذا كان هذا شأن الأمثال في القرآن الكريم فليس غريباً أن تحظي الأمثال بعناية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضي الله عنهم ، ولذلك نجده صلى الله عليه وسلم يتمثل بأمثال غيره من الأنبياء قبله ، فقال : **[إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت]** [2].

بل إنه تمثل أيضاً بأقوال العرب في جاهليتهم ، فقد جاء في الحديث أن أبا سفيان قال له معاتباً : [ما كدت أن تأذن لي حتى كدت تأذن لحجارة الجلهمتين] فرد صلى الله عليه وسلم : **[ما أنت وذاك يا أبا سفيان أنت كما قال القائل : كل الصيد في جوف الفرا]** [3].

ولم يقتصر تمثله على النثر دون الشعر فقد تمثل بقول لبيد : **(ألا كل شئ ما خلا الله باطل)** [4] .

فهذه مكانة الأمثال عنده وهذا شأنها ، فإذا تجاوزنا هذا إلى ما تولاه من ضربها بنفسه رأينا العجب ، إذ لازمته أكثر من ظله ، فما من حالة إلا وله فيها عدد من الأمثال ، ضربها في حله وترحاله ، ووقوفه وجلوسه ، وفي يقظته ونومه ، وما بينهما ، وفي ضيقه وفرجه وسائر ما يمر على الناس من أحوال .

فورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه : [كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم استيقظ وهو يضحك ،

٤- الإتقان ٢/ ١٣١ .

١- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب (٥٤) بدون عنوان ، رقم (٣٤٨٣) ، وأبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب في الحياء ، رقم (٤٧٩٧) ، وابن ماجه في سننه ، كتاب الزهد ، باب الحياء ، رقم (٤١٨٣) ، وأحمد في مسنده ٤ / ١٢١ .

٢- الحديث أخرجه الرامهرمهزي في أمثاله رقم (٨٢) ص ١٨٥ ، وعزاه في المقاصد ص ٣٢٣ ، وكشف الخفاء ٢ / ١٢١ للعسكري في الأمثال ، وقال السخاوي : إسناده جيد ولكنه مرسل .

٣- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب مناقب الانصار ، باب أيام الجاهلية ، رقم (٣٨٤١) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الشعر ، باب في إنشاد الأشعار ، رقم (٥٨٨٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قالت : قلت وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : **(ناس من أمتي ، عرضوا على غزاة في سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة)** وفي رواية أخرى : مثلهم كمثل الملوك على الأسرة] [1] .

وجاء عن المستورد بن شداد أنه قال : [إني لفي ركب مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ مر بسخلة منبوذة ، فقال :

(أترون هذه هانت على أهلها ؟ فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها) [2] فضربها مثلاً لهوان الدنيا على الله .

ودخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فرآه مضطجعاً على حصير وقد أثر الشريط في جنبه ، فقال له : لو نمت يا رسول الله على ما هو ألين ، فقال : **(ما لي وللدنيا ؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب مر بأرض فلاة فرأى شجرة فاستظل تحتها ثم راح وتركها)**[3] .

وكان بوسعه أن يقول ما يقوله الناس في مثل هذا الموقف بتعبيراتهم المباشرة كأن يقول : لم أجد غيره ، أو لا أملك ،أو لا أوثر غيره ، وما أشبه ، ولكنه لم يقل شيئاً من هذا بل أجابه بمثل .

ولعل من الجوانب الأخرى التي تلقي ضوءاً على إيثاره للأمثال ، وشدة اهتمامه بها ، وإكثارة منها ، أنه صلى الله عليه وسلم – كان قد ضربها بكل الصور والأشكال التي يمكن أن تضرب بها الأمثال ، فضربها عبارة وإشارة وصورة .

---

١ - الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء ، رقم (٢٧٨٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب فضل الغزو في البحر ، رقم (٤٩٣٤) .

٢ - الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل ، رقم (٢٣٢١) ، وقال : حديث المستورد حديث حسن ، وابن ماجه في سننه : كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا ، رقم (٤١١٠) ، وأحمد في مسنده ٤/ ٢٣٠ .

٣ - الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الزهد ، باب (٤٤) بدون عنوان ، رقم (٢٣٧٧) ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجه في سننه ، كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا ، رقم (٤١٠٩) ، وأحمد في مسنده ١ / ٣٠١ ، وابن جبان في صحيحه ، الإحسان ٨/ ٨٠ وموارد الظمآن ص ٢٦٢ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفيما أوردناه ما يغنى في أمثال العبارة ، أما في الإشارة فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم عدد منها ، ولعل من أوجزها قوله : **{ بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بإصبعيه : السبابة والوسطى }** [1].

وأما أمثال الصورة والرسم ، فقد روى البخاري بسنده من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : [**خط النبي صلى الله عليه وسلم خطا مربعاً ، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه ، وخط خططا صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط ، فقال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به – أوقد أحاط به – وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**] [2].

وإذا كان قد استعان في هذا بالخطوط ، فقد استعان في غيره بما يمكن أن نسميه الأدوات ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : غرز بين يديه غرزاً ثم غرز إلى جنبه أخر ، ثم غرز الثالث فأبعده ، ثم قال : هل تدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا الإنسان ، وهذا أجله ، وهذا أمله ، يتعاطى الأمل فيختلجه الأجل دون ذلك** [3].

فهل هناك من عناية أكثر من عنايته هذه ، واهتمام أكثر من اهتمامه هذا .

ومن هذا كله يتضح أهمية الأمثال عنده صلى الله عليه وسلم وكثرتها، وقد قاربت أمثاله صلى الله عليه وسلم ألف مثل ، إن لم تزد عليه [4].

روى أن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل[1] .

---

١ - الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ((بعثت أنا والساعة كهاتين)) ، رقم (٦٥٠٣) ، وأشراط الساعة ، باب قرب الساعة ، رقم (٧٤٠٣) .
٢ - صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب في الأمل وطوله ، رقم (٦٤١٧)
١ - مسند أحمد ١٨/٣ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٨/١٠) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير على بن على الرفاعي وهو ثقة .
٢ - أنظر : الأمثال في الحديث النبوي الشريف ص ٧٣- ٧٦ بتصرف .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولتك الأهمية التي أولاها القرآن الكريم والحديث الشريف للأمثال ، كانت عناية العلماء قديماً وحديثاً بها ، حيث اهتموا بجمعها ، وبينوا أهميتها ومنزلتها سواء منها ما كان من أمثال القرآن الكريم ، أو أمثال الحديث الشريف ، أو أمثال العرب بوجه عام .

يقول أبو عبيد :

((الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وقد ضربها النبي صلى الله عليه وسلم ، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف)) [٢].

ويقول الزمخشرى :

((ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي ، في إبراز غيبيات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي ، ولأمر ما أكثر الله في كتابة المبين ، وفي سائر كتبه من الأمثال))[٣] .

وقال أبو هلال العسكري :

((ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام وتدخل في جل أساليب القول ، أخرجوها في أقواها من الألفاظ ليخف استعمالها ويسهل تداولها ، فهي من أجل الكلام وأنبله ، وأشرفه وأفضله ، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ، ويسير مؤونتها على المتكلم ، ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب ، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب))[٤] .

١- الحديث أخرجه الرامهرمزي في مقدمه أمثاله ص ٦ ، وقال ابن العربي في العارضة (٣/٦) : ((ولم يصح))

١ - المزهر للسيوطي ١ / ٤٨٦.

٢ - الكشاف ١/ ١٤٩.

٣- جمهرة الأمثال (١/ ٤ – ٥)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ويقول الدكتور محمد جابر فياض :

((إن الأمثال عون للإنسان على الحياة في صراعه معها ، واستجابة لدواعي المعرفة فيه ، حيث إنه يحاول أن يعرف أكثر مما عرف فيجد نفسه مضطراً إلى الإفادة من تجارب غيره ، لأن تجاربه أقل من أن تفي بغرضه ، والحكم والأمثال أقصر الطرق لإطلاعه على تجارب الآخرين ، ممن سبقه أو عاصره ، فهي بمثابة المفاتيح لكثير من غرف الحياة المغلقة ، التي يريد الإنسان ولوجها ، والتعرف على ما فيها ، وإذا كانت أساليب التعبير المختلفة – كلها – تعين على الحياة وفهمها ، فالأمثال أشمل من كل تلك الأنواع ، وأقصر من كل تلك السبل ، ومن هنا كان لها ما كان من أهمية)) [1].

ومن أجمع وأمتع ما قيل في التأثير النفسي للأمثال ، قول شيخ البلاغة العربية وإمامها عبد القاهر الجرجاني ، إذ يقول : { وأعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيه محبة وشغفاً .

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بعز المنائح والمواهب ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذماً كان مسه أوجع ، وميسه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد .

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانة أقهر ، وبيانه أبهر .

وإن كان اعتذاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد .

---

١ ـ الأمثال في الحديث الشريف ص ٣٨، ٣٩ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفي عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث .

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفي الغليل .

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه . [1]

وخلاصة القول : أن أهمية ضرب الأمثال وفائدتها ، تتجلى بنظرة جامعة في الجوانب التالية :

أولاً : الجانب اللفظي :

وفيه تتجلى بلاغة المتكلم ، بإيجاز اللفظ وحسن التشبيه والتمثيل ، وجودة الكفاية ، وفيه وضوح المنطق ، وتمكن المتكلم من شعب الحديث .

ثانياً : الجانب المعنوي :

وتبرز فيه قدرة المتكلم على تقريب المراد ، وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع ، وإحضاره في نفسه ، بصورة المثال الذي مثل به ، ليكون أقرب إلى تعقله وفهمه ، وضبطه واستحضاره ، وفي ذلك يقول الإمام الزمخشري : (التمثيل إنما يصار إليه ، لما فيه كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهم من المشاهد)

ويقول أيضاً : (إن الأمثال لها شأن كبير في إبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق .....) .

والتمثيل يعين المتكلم أو المربي على استجماع معاني الكلام ، والإلمام بأطرافه وأبعاده ، فله دوره في التربية والعطاء ، كما له دلالته على التمكن من (المادة) وحسن العرض والأداء .

١- تفسير المنار (١/ ١٩٨- ١٩٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثالثاً : الجانب النفسي أو التربوي :

ونعني به ما يتركه المثل السائر أو التشبيه التمثيلي ، في نفس السامع من أثر نفسي أو تربوي عميق ، فإن كان السامع بعيداً عن الحق اقترب ، وإن كان غافلاً معرضاً تنبه واتعظ ، وإن كان جاحداً مكابراً قمع وانزجر ، ولا شك أن النفس البشرية تأنس بالنظائر والأشباه ، وتتأثر باقتراب بعضها البعض ، وتفر من الغربة والوحدة وعدم النظير ....) كما يقول ابن القيم .

ولا أدل على ذلك مما حدث لأحدهم مع عبد الملك بن مروان ، عندما ظهر الطاعون في دمشق ، وعزم ذلك الخليفة الأموي على الفرار منها إلى المدينة ، فدخل عليه بعض أهل الفضل ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، بلغني أن ثعلباً صادق أسداً على أن يجبره من كل سباع الأرض ، فكان دائماً بين يديه ، فظهر في يوم من الأيام عقاب في الجو ، فخافه الثعلب ، ووثب على ظهر الأسد ، فانقض عليه العقاب واختطفه ، فصاح الثعلب بالأسد : يا أبا الحارث .... العهد العهد ، فقال له الأسد : إنما عاهدتك على أن أحفظك من أهل الأرض ، وأما أهل السماء فلا قدرة لي عليهم ففهم عبد الملك مقصده ، وقال : والله لقد وعظتني ، ثم رجع عن فكرته بمغادرة دمشق [١].

رابعاً : الجانب المعرفي :

وأعني به أن الأمثال تثري جوانب المعرفة المختلفة لدى الإنسان ، إذ فيها يتجلى وعي الشعوب ، ومن خلالها تتكشف عادات الأمم وأخلاقها ، وعقليتها وتقاليدها ، لأن الأمثال عادة – وليدة البيئة التي نشأت فيها [٢].

يقول الأستاذ أحمد أمين : (وأمثال كل أمة مصدر هام جداً للمؤرخ والأخلاقي والاجتماعي ، يستطيعون منها أن يعرفوا كثيراً من أخلاق الأمة ، وعاداتها ، وعقليتها ، ونظرتها إلى الحياة ، لأن الأمثال – عادة – وليدة البيئة التي نشأت عنها .

---

١ - قطوف لغوية لفتحي الخولي صـــ ٩٩ ط: مكتبة الإرشاد. جدة.
٢- فجر الإسلام ص ٦١ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ونختم هذه النقطة، بتحقيق دقيق، وكشف نفيس عن أهمية الأمثال وفائدتها، للإمام الحسن اليوسي رحمة الله تعالى ، يقول في (زهر الأكم) :

[.... لا يخفي على ذي ميز ، ولا يشتبه على ذي لب ما جعل الله تعالى في المثل من الحكمة ، وما أودع فيه من الفائدة ، وناط به من الحاجة ، فإن ضرب المثل يوضح المنبهم ،ويفتح المنغلق ، وبه يصور المعنى في الذهن ، ويكشف المعمى عند اللبس ، وبه يقع الأمر في النفس حسن موقع ، وتقبله فضل قبول ، وتطمئن به اطمئناناً ، وبه يقع إقناع الخصم ، وقطع تشوف المعترض ..... وهذا كله معروف بالضرورة ، شائع في الخاص والعام ، ومتداول في العلوم كلها منقولها ومعقولها ، وفي المحاورات ، والمخاطبات ، حتى شاع من كلام عامة المتعلمين والمعلمين قولهم : ((بأمثالها تعرف أو تبين الأشياء)) .

وسر ذلك أن المثل يصور المعقول بصورة المحسوس ، وقد يصور المعدوم بصورة الموجود ، والغائب بصورة المشاهد الحاضر ، فيستعين العقل على إدراك ذلك بالحواس ، فيتقوى الإدراك ، ويتضح المدرك .

وتحقيق ذلك أن العقول ، وإن كانت تدرك المعلومات ، لكنها غير مستقلة بنفسها غالباً في إدراك جميعها ، ولا جلها استقلالاً صرفاً ، لاسيما القاصرة ، وذلك أن العقول إنما تستقل بإدراك أوائل الضروريات التي توجد في غرائزها ، ولا تدري لها سبباً غير اختراع الفاعل المختار ، وما سوى ذلك فالعقول فيها إما مفتقرة إلى الحواس ، كالمعلومات التجريبية التي موادها محسوسة بإحدى الحواس ، وإما مستعينة بها ضرباً من الاستعانة على طريق التمثيل والتقرير ونحوه .

والعقل عادة إنما يدرك بنفسه الضروريات ، وما سوى ذلك إنما يدركه بواسطة تأدية ، أو تأدي نظيره إليه من الحواس الظاهرة أو الباطنة ، ومع ذلك فالمتأدي إليه إنما هو أمر جزئي بالضرورة ، فمتى حاول جنساً من ذلك لم يكن الجنس بنفسه من حيث إنه جنس

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

متأدياً بشئ منها ، فاحتاج إلى أن يمثل بصورة من ذلك الجنس ، فيدركها لأنها هي التي كانت تتأدي إليه ليقيس عليها غيرها ، وبذلك يمكنه أن يدرك القاعدة والقانون ، وهو الذي نعني بالجنس في هذا المحل ، حيث أدرك مادته إلا أن يكون له من لطف الإدراك وقوة الذكاء ، ما يستحضر به تلك الصور ، وينتزع منها مراده ، من غير أن يصور منها شئ مخصوص ، فهذا يستغني عن التمثيل ، وقليل ما هم ، ومع ذلك فالنفس قد قلنا إنها قوية الاستئناس بالمحسوسات لوضوحها وسبقها .... والاستئناس بالمألوف مركوز في جبلة النفوس ..... ثم إنه كلما عرف الإنسان ضرباً من العلوم ومارسه الفته نفسه، واستأنست به، فإذا ارتحل عنه إلى منزلة أخرى حنت النفس إلى الأولى المألوفة أيضاً، فاحتيج إلى أن يضرب لها مثل بشيء مما ألفته أو نظيره لتستأنس به، وتطمئن إليه، حتى لا يختص التمثيل بالمحسوسات الصرفة، وهكذا أبداً....

فقد تبين بهذه الكلمات الاحتياج إلى التمثيل ، ووجه الاحتياج ، وأنه لا غنى عنه لعام ولا خاص ، غير أن الاحتياج قد يكون ضرورياً ، وذلك عند العجز عن الوصول إلى المطلوب بدونه ، وقد يكون تحسينياً ، وذلك عند الاحتياج إلى الاستعانة به والاستئناس والاطمئنان ، هذا الأصل ، وقد يكون الاحتياج لأغراض أخرى .....

هذا ما ألهمني الله تعالى في هذا المقام على سبيل الإجمال ، وأما بسطه كل البسط فلا يسعه القول ، وفيما ذكرناه كفاية ، إذ ليس من الغرض الإكثار إذا فهم المقصود وأدرك المراد ، فقد ظهر بهذا عظم فائدة التمثيل ، وبذلك تبين فضله ....)) [1].

وحقاً إنه كلام نفيس وفهم دقيق، وفتح ظاهره في تحليل فائدة المثل، والكشف عن الحكمة من ضربه.

الأمثال واستنباط الأحكام الشرعية

١- ((زهر الأكم في الأمثال والحكم)) ١ / ٣١ – ٣٤ ، باختصار وتصرف يسير .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ذكرنا فيما سبق أن للأمثال في الشريعة الإسلامية أهمية كبيرة، حيث أكثر القرآن الكريم من ضربها، وكذلك أكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم من استعمالها، ورغم ذلك فهناك كلمة للإمام الجويني توحي بأن الأمثال لا يتعلق بها إثبات الأحكام حيث قال فيما نقله عنه ابن العربي في عارضته :

[لا يتعلق في إثبات الأحكام بالأحاديث التي مساقها ضرب الأمثال، فإن باب الأمثال مكان تجوز وتوسع] [١].

وقد رد عليه ابن العربي فقال: [[وهو وإن كان موضع تجوز وتوسع فإن النبي عليه السلام لا يقول إلا حقا تمثل له وحقق]][٢] .

أقول : ومما يعضد قول ابن العربي أمران :

أحدهما : أن السنة النبوية صنو القرآن الكريم ، حيث إن كليهما خرج من مشكاة الوحي الإلهي ((نور على نور)) وعلاقة السنة بالقرآن هي علاقة البيان بالمبين ، ومن وسائل البيان وإثبات الأحكام ضرب الأمثال ، ولذلك عد الإمام الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن ، علم الأمثال ، فقال : ((ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته ، المبينة لاجتناب نواهيه)) .

وقال الشيخ عز الدين : [إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً ، فما أشتمل منها على تفاوت في ثواب ، أو إحباط عمل ، أو على مدح ، أو ذم ، أو نحوه ، فإنه يدل على الأحكام] [٣].

الثاني : أن علماءنا الأجلاء استنبطوا من أحاديث الأمثال أحكاماً كثيرة ذكروها حين تعرضوا لتلك الأحاديث بالشرح والتحليل ، وهذه نماذج مما استنبطوه .

(١) – روى البخاري في صحيحه بسنده من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إن من

---

١ - عارضة الأحوذي ٦/ ٢١.
٢ - عارضة الأحوذي ٦ / ٢١.
١- الإتقان ٢ / ١٣١ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبدالله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ، قال : هي النخلة)) [1].

يقول البدر العيني في عمدته تحت عنوان : بيان استنباط الأحكام من هذا الحديث ، ويستنبط منه عدة أحكام :

أولاً : فيه استحباب إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبر أفهامهم ويرغبهم في الفكر .

الثاني : فيه توقير الكبار وترك التكلم عندهم .

الثالث : فيه استحباب الحياء ما لم يؤد إلى تفويت مصلحة ، ولهذا تمنى عمر رضي الله عنه أن يكون ابنه لم يسكت .

الرابع : فيه جواز اللغز مع بيانه ، فإن قلت : روى أبو داود من حديث معاوية عن النبي صلى الله عليه وسلم ((أنه نهى عن الأغلوطات)) قال الأوزاعي أحد رواته : هي صعاب المسائل ، قلت : هو محمول على ما إذا أخرج على سبيل تعنيت المسئول أو تعجيزه أو تخجيله ونحو ذلك .

الخامس : فيه جواز ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام وتصوير المعاني في الذهن وتحديد الفكر والنظر في حكم الحادثة .

السادس : فيه تلويح إلى أن التشبيه لا عموم له ، ولا يلزم أن يكون المشبه مثل المشبه به في جميع الوجوه .

٢- صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب قول المحدث : حدثنا وأخبرنا ... ، رقم (٦١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

السابع : فيه أن العالم الكبير قد يخفي عليه بعض ما يدركه من هو دونه ، لأن العلم منح إلهية ومواهب رحمانية ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء [١].

(٢) : روى البخاري في صحيحه بسنده من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)) [٢].

يقول ابن حجر في الفتح ، وهو يتحدث عن الأحكام المستنبطة من هذا الحديث ، وفيه :

١- أن إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها .

٢- فيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف.

٣- فيه تبيين العالم الحكم بضرب المثل.

٤- وجوب الصبر على أذى الجار إذا خشي وقوع ما هو أشد ضرراً، وأنه ليس لصاحب السفل أن يحدث على صاحب العلو ما يضر به ، وأنه إن أحدث عليه ضرراً لزمه إصلاحه ،وأن لصاحب العلو منعه من الضرر .

٥- فيه جواز قسمة العقار المتفاوت بالقرعة وإن كان فيه علو وسفل .[3]

(٣) روى البخاري في صحيحه بسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [

١- عمدة القاري ٣٨٩/١ بتصرف .
٢- صحيح البخاري ، كتاب الشركة ، باب هل يقرع في القسمة ؟ والاستهام فيه ، رقم (٢٤٩٣) .
١ - فتح الباري ٥/ ٣٤٩ ، بتصرف .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ، ما تقول ذلك يُبقى من درنه ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيئاً ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا] [١].

يقول ابن العربي في استنباط الأحكام من هذا الحديث : ((إن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة والأحوال المشاهدة في بدنه وثيابه فيطهره الماء الكثير العذب إذا والى استعماله وواظب على الاغتسال به ، فكذلك تطهر الصلاة العبد عن أقذار الذنوب حتى لا تبقى له ذنباً إلا أسقطته وكفرته ، ويكون ذلك بالوضوء قبل الصلاة ، ويكون ذلك بالوضوء والصلاة ، وإنما يكفر الوضوء الذنوب لأنه يراد به الصلاة فما ظنك بالمراد وهو الصلاة ، ذلك أقوى في التكفير وأولى بالإسقاط ، وكما يطهر الماء الوسخ ، فكذلك يذهب الهموم والغموم الداخلة على العبد أيضاً ، فإن الهموم أصلها الذنوب ، فإذا ذهبت الذنوب التي هي أسباب الهموم ذهبت في نفسها بذهاب أسبابها ، ولذلك يقول المعبر للرجل الذي يرى في منامه أنه يغتسل ، إن كان عليك دين قضيته ، أو هم زال عنك شغله)) [٢].

وهكذا نرى أحكاماً كثيرة استنبطها العلماء من أحاديث الأمثال ، الأمر الذي يؤكد صلاحيتها لاستنباط الأحكام الشرعية ، ويرد على الجويني فيما نفاه من ذلك، ومن أراد المزيد فعليه الرجوع إلى كتب شروح الحديث ، وفيما ذكرناه غنية ، والله أعلم .

****

٢- صحيح البخاري ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب الصلوات الخمس كفارة ، رقم (٥٢٨)
١ - عارضة الأحوذي ٦ / ١٦ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الآثار التربوية للأمثال

إن للأمثال في السنة النبوية - كما للأمثال في القرآن الكريم – أثاراً تربوية كثيرة، وأهدافاً تعليمية عديدة، ومن ثم يجب على العقلية المسلمة أن تحسن التأمل وأن تجيد التفكر لاستخراج تلك الآثار، والوقوف على تلك الأهداف، لأن ذلك مما يثرى العملية التعليمية من ناحية، ويؤصل جذورها من ناحية أخرى، وحسب العقلية المسلمة تحفيزا على هذا الأمر وإنماء له، قول الله تعالى: ((وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون))(١) ، وفي الصفحات التالية سنعرض لتلك الآثار حسبما ييسر الله تعالى(٢) ، بغية أن تكون إضافة جيدة لهذا البحث ، فإلى ذلك بتوفيق الله تعالى .

١- المثل تجسيد بالمحسوس :

إن ضرب الأمثال وسيلة عظيمة في تقريب الفكرة إلى الذهن ، وذلك بتحويلها من معنى ذهني مجرد ، إلى صورة حسية مشاهدة .

وهذا الأمر – بلا شك – عظيم الأثر ، في تسهيل فهم المتعلم للمعلومة المطروحة ، ولا سيما إذا كان حدث السن ... ذلك أن الصغير لا يستطيع – غالباً – استيعاب الفكرة ، إذا كانت لا تعدو كونها مجرد معنى ذهني خالص بحت ، وإظهارها على صورة مثل محسوس يقربها إلى ذهنه ، ويعينه على استيعابها .

كما أن تحويل المجرد إلى محسوس مشاهد ، يزيد في إيضاحه في عقل الكبير ، ويساعد في تثبيته لديه .

يقول الزركشي: ((إن الحكم والأمثال تصور المعاني تصور الأشخاص، فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس.. بخلاف المعاني المعقولة، فإنها مجردة عن

---

(١) : سورة العنكبوت /٤٣ .

(٢) : انظر : ظاهرة الأمثال في الكتاب والسنة وكلام العرب للأستاذ / مصطفى الصياصنة صـ ٧٣ – ١٨٢ ، وضرب الأمثال في القرآن ، أهدافه التربوية وآثاره لعبد المجيد البيانوني ص ٧٣ – ١٤٣ ، وأساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية ص ٤٢٤ – ٤٣٤ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الحس ، لذلك دقت ، ولا ينتظم مقصود التشبيه والتمثيل ، إلا بأن يكون المثل المضروب مجرباً مسلماً عند السامع)) [١] .

وفي السنة النبوية نجد أمثلة فذة لهذا الأثر التربوي ، وهو استحالة المجرد إلى مشهد محسوس .

أ- فعن النعمان بن بشير – رضي الله عنه – أن النبي صلي الله عليه وسلم ، قال **((مثل القائم في حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها ، إذا استقوا من الماء ، مروا على من فوقهم فآذوهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على يدهم ، نجوا ونجوا جميعاً))** [٢] **.**

فهذا مثل في غاية الروعة والتصوير والجمال ، لمفهوم الحرية في الإسلام .. إذ صور عليه الصلاة والسلام المجتمع البشري – بما فيه من أخيار وأشرار – بركاب سفينة ، في بحر خضم ، متلاطم الأمواج ، وهي تشق طريقها – وسطه – بين الأمواج والأعاصير ، وقد انقسم ركابها قسمين : قسم في أعلاها ... ينعمون بقربهم من الماء العذب الفرات ، وقسم في أسفلها ... يعوزهم ما ينعم به إخوانهم من وفرة الماء ، فكانوا مضطرين دائماً إلى جلبه من الأعلى ، وفي لحظة من لحظات المسيرة ، شرع بعض ركاب السفينة ينقر موضعه بفأس ، ليصل إلى الماء ، من أقرب طريق وأسهل سبيل .

إن تفكيره لا يكاد يتجاوز دائرة ذاته ، بل ولا يكاد يرى أبعد من أرنبة أنفه ، استعمل معول الهدم ، بدلا من أن يكون عنصر بناء ... فهو يمثل – في المجتمع – عنصر الخطر وبؤرة الفساد والشر ، وهو مع ذلك يتبجح بأنه يمارس حريته الشخصية ، فهل يتركه المجتمع وما يفعل ؟؟ أم يسرع إلى تلافي الموقف وتدارك الخطر بالأخذ على يده ؟؟ .....

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١ / ٤٨٨)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم (٢٤٩٣) ، والترمذي في سننه ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب ، رقم (٢١٧٣) ، وقال حسن صحيح .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الجواب الجلي الواضح: ((إن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعا، وإن أخذوا على يدهم نجوا ونجوا جميعا))....

إن من واجب المجتمع، أن يأخذ على أيدي أمثال هؤلاء، وإلا تعرض بناؤه للانهيار الأكيد.

إنه مثل واضح مشهود، لفكرة الحرية ، مفهوماً وممارسة ... عرضه عليه الصلاة والسلام بالصورة المحسوسة، التي يعيها كل ذي لب :

- **المجتمع**: هو السفينة، وسكانه، ركابها، والدلالة: أن مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد حين التعارض، وبذا تضمن الجماعة لنفسها عنصر البقاء والاستمرار. [١]

ب- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟؟؟ ....))** [٢]

فهذا مثل ضربه ﷺ في سلامة الفطرة البشرية، يوضح فيه ببيان جلي ناحية شغلت أذهان علماء الاجتماع والفلاسفة والمفكرين، ردحا طويلا من الزمن ولا تزال، وفحواها: هل الدين فطرة في الإنسان ؟؟ ... وهل يكون الطفل – حين ولادته – مزوداً بطاقة تلهمه السداد ؟؟ .

لقد بين ﷺ أن الخير في الإنسان أصل، وأن الشر عارض، فالمجتمع من حول المرء هو الذي يفسده، والبيئة المحيطة هي التي تلوث فطرته، ولا سيما أبواه ومن حوله...

ومن هنا شبه الحديث الطفل بالشاة، التي يخلقها الله تعالى كاملة الخلق، جميلة الشكل والصورة، ولكن الناس هم الذين يشوهون جمالها: فيقطعون أذنها، ويجدعون أنفها، ويعبثون بها، حتى تصبح ناقصة الخلق، مشوهة الصورة....

فالخلق الكامل التام الأوفى.... هو خلق الله، وإنما يأتي النقص والمسخ من فعل الإنسان.

---

(١) ظاهرة الأمثال في الكتاب والسنة وكلام العرب ص ٨٠ .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ، رقم (١٣٨٥) ، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر ، باب معني كل مولود يولد على الفطرة ... رقم (٦٧٥٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من خلال تلك الأمثلة وغيرها، يتضح لنا بجلاء، كيف أن الأمثال تساعد في تقريب الأفكار المجردة الصرفة إلى الأذهان، عن طريق نقلها إلى ما يدلل عليها من الصور المحسوسة: وهو أسلوب بالغ الأهمية، في مجال التربية والتعليم، إذ يساعد المتعلم، على تمثل المعاني المجردة، بعرض مثيلاتها من الصور المحسة، على صفحة ذهنه، بما يوضحها ويجليها، ويرفع ما كان يكتنفها من غموض أو غبش.

قال الإمام السيوطي: ((وضرب الأمثال يستفاد منه في أمور كثيرة، منها: تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص، لأنها أثبت في الذهن، لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض في المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالمشاهد)) [١] .

٢- إيضاح المعاني وتقريرها :

يعد ضرب الأمثال أحد الأساليب الحيوية، التي يلجأ إليها بهدف إيضاح المعاني وتقرير فحواها، ويكون ذلك حين يساق المثل، بعد تمام المعنى واستيفاء مقصودة، فيأتي حينئذ كالبرهان، الذي تثبت به المسألة، ويدُلل عن طريقه، على صدق فحوى القاعدة.

- ومثاله في شعر العرب قول أبي تمام:

وطـول مقام المرء في الحي مخلق * للديبـــاجتيه ، فاغترب تتجـــدد**

فإني رأيت الشمس زيدت محبــة * إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد**

- وقول الشافعي في نفس المعنى :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه * وانصب فإن لذيذ العيش في النصب**

إني رأيت وقوف الماء يفســده * إن سال طاب وإن لم يسل لم يطب**

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٣١) ط: دار الفكر، بيروت.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

●وقول أبي العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * إن السفينة لا تمشي على اليبس**

وفي الحديث الشريف أمثال فريدة سيقت بعد تمام المعنى ، بهدف زيادة توضيحه وتقريره ، وتثبيت فكرته في الأذهان .

أ- فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **((الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا ولكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه)** [١] .

فبعد أن عرض ﷺ لمفهوم الحلال والحرام والأمور المشتبهة بينهما ، ضرب مثلا أفاد إيضاح المعنى ، كما زاد في تقريره ، وهو تشبيه محارم الله بالحمى – وهو المكان المحمي المحتجز من غير حامية ، حماه صاحبه ومنع الناس من دخوله ، باعتباره منطقة محرمة على غيره – ومثل للمشتبهات – وهي الأمور التي فيها اشتباه عند عامة الناس ، فلا يدرون : أهي حرام ؟ أم حلال ؟ - بالمناطق المتاخمة لمنطقة الحمى ، الملاصقة لها ، وشبه عليه السلام الذي يقع في الشبهات ، بالراعي الذي يأخذ غنمه ، لترعى بجوار أرض يحميها صاحبها ، ويمنع الناس من دخولها ، فهو لا يأمن أن تشرد غنمه ، أو يسهو عنها لحظة .. فتجوس في الأرض المحمية ، مما يعرضه للعقوبة والمؤاخذة ، وقد يلحق به كبير الأذى ، ولو أنه احتاط لنفسه ، لجعل بينه وبين هذه الأرض المحمية فاصلا .

يقول الدكتور كامل الدقس في التعليق على هذا المثل: ((والحق إنها لصورة فنية رائعة ، صورتها كلمات قلائل ، وأخرجت المعنويات في صورة المحسوسات القريبة ، فأنت ترى أمام ناظريك راعيا يسوق غنمه إلى المرعى ، وينتقل بها من مرعى مباح ، إلى مكان عام ترعى فيها أغنام عامة الناس ، ولكنه لا يقترب من المراعي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (٤٠٩٤)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المحجوزة المحرمة ، حتى لا يقع في عقوبة ، مع أن الاقتراب في ذاته لا يعرضه لشئ ، ولكنه اتخذ جانب الحيطة والحذر ، ويخشى أن تندفع أغنامه في الأماكن المحذورة ، فلا يستطيع لها منعا ، فهي إذا رأت ما تشتهيه نفسها ، لا تستطيع كبح جماح غريزتها وشهوتها ، وهي ليست شاة واحدة ، بل مجموعة كبيرة ، يشجع بعضها بعضا على اقتحام الحمى ، والوصول إلى ما وراءه ، ومن أين لهذا الراعي تلك القوة الرادعة ، التي تستطيع رد هذه الأغنام الهائجة ؟ ... إنه لن يستطيع تخفيف ثورتها ، بل سيتلجلج ، ويجرى هنا وهناك بينها ، ولكنها ستقهره وستقتحم الأسوار ، وستنال من المحرمات ، وتستطيبها ، وسيزداد نهمها وحرصها كلما أكلت ، ومهما حاول ذلك من جهد لإخراجها ، فإنه لن يستطيع ، وهنا يعرض نفسه لعقوبة الملك ...

كيف يسمح عاقل لنفسه أن يعتدي على ملك قوي جبار ، وهو يعرف أنه ضعيف محكوم مقهور في يد هذا الملك ؟؟.... وماذا يمكنك أن تتصور لو قلت لك : إن الإنسان المكلف العاقل ، هو ذلك الراعي ، وأنه سيقف أمام ملك الملوك ، أمام الله العزيز الجبار ، الذي له جنود السموات والأرض ؟ ..

وقد رأيت أن الأسلوب النبوي الكريم ، لم يكتف بتقرير هذه الحقيقة المعنوية في الأذهان ، بل عمد إلى جانب التصوير ، الذي وضعنا أمام لوحة فنية ناطقة ، لو رسم تفاصيلها فنان بالألوان ، لعد عمله براعة في عالم التصوير الجميل [١] .

ب – وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : **((إنما مثلي ومثل الناس : كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يزعهن ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها))** [٢]

ففي هذا الحديث يضرب النبي ﷺ مثلا ، هدفه إيضاح حاله مع عامة الناس ، إنهم يتدافعون إلى النار ، وهو عليه الصلاة والسلام

---

(١) من روائع الأدب النبوي ص ٨١- ٨٣ ، ط : دار الشروق

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب الانتهاء عن المعاصي ، رقم (٦٤٨٣) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب شفقته على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم ، رقم (٥٩٥٥)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يحجزهم عنها ، وما تمثيله لهم بالفراش ودواب الأرض ، إلا تعبيراً عن خفة مداركهم وضعف بصيرتهم ...

قال الغزالي: ((التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت في النار ، لكن جهل الآدمي أشد من جهل الفراش لأن باغترارها بظاهر الضوء أحرقت نفسها وفنيت حالا ، والآدمي يبقى في النار مدة طويلة أو أبدا)) [١]

إنه التقرير والإيضاح بطريق المثل المحسوس ، عن فكرة ذهنية – وهي ماثلة في الواقع – بهدف الوصول إلى : زيادة في تقريرها ، وجلاء جوانبها ، لتصبح ماثلة عيانا لكل معتبر متعظ .

٣- تقريب البعيد وجعل المتخيل متحققا

قد توجد بعض المفاهيم ، نجدها بعيدة المنال ، عن متناول ذهن المتلقي ، إذا أنه لا يستطيع تخيلها ، ولا تمثلها بسهولة ويسر ... فيأتي المثل ، ليقوم بدور ((تقريب مثل هذه المفاهيم ، وجعلها في متناول الذهن)) ، كما وأنه ((يصور المتخيل في صورة المتحقق الحاصل)) بما يحيله بينا واضحا ، لا لبس فيه ولا غموض .

أ- فمثلا ثواب الصدقة عظيم عند الله عز وجل ، وقد بلغ من تعاظمه أمراً يصعب تخيله أو استحضار مقداره ، في حيز الإدراك البشرى ، ومن ثم يضرب النبي ﷺ لذلك مثلا توضيحياً ، يقرب فيه إلى حدود الذهن ، ما كان بعيدا عليه الإحاطة به ، ويجعل من الأمر الذي كان متخيلا ، وكأنه الأمر المتحقق الملموس ، الذي نشاهده ونلمسه ونحسه .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول ﷺ قال : **((لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه ، فيربيها كما يربي أحدكم فلوَّه أو قلوصه ، وحتى تكون مثل الجبل أو أعظم))** [٢]

---

(٣) فيض القدير (٥/ ٥١٨) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة من كسب طيب ، رقم (١٤١٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ، رقم (٢٣٤٣) واللفظ لمسلم .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فالصدقة ينميها الرحمن بيديه ، حتى تغدو كمثل الجبل أو تزيد ، والصورة المقربة لذلك ... صورة الرجل ، وقد أخذ يرعى فرسه الهزيلة الضعيفة ، أو ناقته العجفاء وظل يُعنى بها ، إلى أن سمنت وتعاظمت صحة وقوة .

ب-وللوضوء والصلاة أثرهما العظيم ، في تطهير المسلم من الذنوب والآثام ، وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلا بهذا الحديث ، الذي أحال الخيال حقيقة وواقعاً .

فعن أبي عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسي رضي الله عنه تحت شجرة وأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : يا أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا ، قلت : ولم تفعله ؟ قال : هكذا فعل بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه ، فقال يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا ، قلت ، ولم تفعله ؟ قال : **((إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق ، وقال : ((وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين))** [1]

إنه مثل حسي مشهود ، استخدم فيه رسول الله ﷺ غصن الشجرة كوسيلة إيضاح لذهاب السيئات عن الإنسان المواظب على الوضوء والصلاة ، وعدم رجوعها إليه كما تتساقط الأوراق اليابسة من غصن الشجرة ثم لا تعود إليه .

وفي هذا تحريك للعواطف والوجدان ، وإثارة النفس للتخلص من الذنوب والخطايا بإكثار الوضوء والصلاة مما سيتسبب في تقوية الجانب الروحي لدى الفرد .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، انظر : الفتح الرباني (٢ / ١٩٩ ، ٢٠٠) ، والطبراني في معجمه الكبير (٦ / ٢٥٧) ، وقال المنذرى في الترغيب (١/ ٢٣٧) : ((رواه أحمد والنسائي والطبراني ، ورواة أحمد محتج بهم في الصحيح إلا على بن زيد)) . قلت : وعلى بن زيد ، هو ابن جدعان قال عنه ابن حجر في التقريب (رقم ٤٧٣٤) : " ضعيف " وللحديث شواهد في الصحيحين وغيرهما ، وستأتي معنا إن شاء الله في الدراسة التحليلة .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وهكذا تعطى الأمثال صوراً تقريبية ، مستقاة من الواقع المحس ، هدفها إزالة ما كان يكتنف الفكرة من بعد عن متناول ذهن المتلقي وإدراكه .

٤- تقريب الأحكام والوقائع بذكر نظائرها :

من أثار ضرب الأمثال في مجال التربية : تقريب الأحكام إلى الذهن عن طريق ذكر نظائرها ، بحيث تتضح هذه الأحكام ، وتبرز معالمها ماثلة للعيان ، جلية للخاطر ...

ومن أمثلة ذلك : ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة الله عنه : أن أعرابيا أتى رسول الله ﷺ فقال : إن امرأتي ولدت غلاما أسود ، وإني أنكرته ، فقال له رسول الله ﷺ : **((هل لك من إبل ؟))** قال : نعم ، قال : **((فما ألوانها ؟))** قال : حمر ، قال : **((هل فيها من أورق ؟))** قال : إن فيها لورقا ، قال : **((فأنى ترى ذلك جاءها ؟))** قال : يا رسول الله ، عرق نزعها ، قال **: ((ولعل هذا عرق نزعه))** ، ولم يرخص له في الانتفاء منه .

فالنبي صلى الله ﷺ لم يرخص لهذا الأعرابي تنفيذ فكرة الانتفاء من ولده بسبب اختلاف اللون – وهي التي كانت همه الشاغل حين أتى النبي ﷺ ، ولم يكتف رسول الله ﷺ بذلك ، بل إنه ضرب له مثلا يزيل ما ألم به من وساوس وأوهام ، إذ مثل له الحالة التي جاء يستفسر عنها ، بحالة شبيهة لها ، إلا أنها بينة واضحة جلية ، بالنسبة لفهم ذلك الأعرابي ، ومدى تصوره وإدراكه ، وهي : ((حالة الإبل الحمر تلد بعيرا أورق)) والأورق من الإبل : ما في لونه بياض يميل إلى سواد ...

وبذا اتضحت لهذا الرجل المسألة ، التي كانت مشكلة بالنسبة إليه ، وذلك عن طريق ضرب المثل بالنظير .

ب- وروى النسائي عن عبد الله بن الزبير قال : **((جاء رجل من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الركوب ، وأدركته فريضة الله في الحج ، فهل يجزئ أن أحج عنه ؟ قال :**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أنت أكبر ولده ؟ قال : نعم ، قال : أرأيت لو كان عليه دين ، أكنت تقضيه ؟ قال : نعم ، قال : فحج عنه)) [1]

فمن أجل تقريب الحكم إلى ذهن السائل ، ضرب صلى الله عليه وسلم له مثلا ، من أمور الدنيا التي هو يدركها ، وهو قضاء الدين عن الميت ، ثم جعل دين الله عز وجل – في وجوب القضاء – بمنزلة دين الآدمي ، وألحق النظير بالنظير ، فاتضحت المسألة ، وبان الحكم ، وزال ما كان من إشكال .

هذه الأمثلة وغيرها من قبيل توضيح الأمر بذكر نظيره وحمله عليه ، وهو من أفضل الأساليب لتقريب الأحكام إلى الأذهان ، وبيان مراداتها ، ودفع ما قد يكون في ذهن السائل ، من التباسات حولها ...

٥- إبراز الفكرة بما يقابلها ويضادها :-

إن إبراز الفكرة عن طريق مقارنتها بضدها هو أحد الأساليب المتبعة في الأمثال، بهدف تجلية الأفكار وتوضيحها في ذهن المتلقي ، وذلك بطرح المفاهيم المتعارضة ، والتركيز على إبانة أوجه التعارض أو التنافر بينها ، أو بعقد مقارنة بين نقيضين ، بالوقوف على جانب التخالف بين طرفيها ، كالتركيز على إظهار أوجه المفارقة بين الخير والشر ، بين الإيمان والكفر ، بين الفضيلة والرذيلة ، أو بين الصلاح والفساد .

واعتماد مثل هذا الأسلوب في المثل ، يحقق هدفا تربوياً عظيماً ، إذ يسهل على المتلقي فهم الفكرة ، بتلمس جوانب التنافر مع نقيضتها ، خاصة وأن بعض المفاهيم الغائمة لا تزداد

---

(١) سنن النسائي ، كتاب مناسك الحج ، باب تشبيه قضاء الحج بقضاء الدين ، رقم (٢٦٣٧) ، وإسناده ضعيف ، لتفرد يوسف بن الزبير به ، وهو مجهول العدالة ، قال ابن جرير : مجهول لا يحتج به . أنظر : ذخيرة العقبي (٢٣/ ٢٤٧) ، وللحديث شواهد يرتقى بها إلى درجة الحسن ، منها : حديث الفضل بن العباس عند البخاري ، كتاب جزاء الصيد ، باب الحج عمن لا يستطيع الثبوت على الراحلة ، رقم (١٨٥٤ ، ١٨٥٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

صورتها – في الأذهان – وضوحا وجلاء ، إلا بعد عرضها مقرونة بنقائضها وقديماً قيل : ((وبضدها تتميز الأشياء)) .

ومن أمثلة ذلك :

١- ما عقده صلى الله ﷺ من تمثيل ، لإظهار المفارقة بين الجليس الصالح وجليس السوء : **((إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا منتنة))** [١]

فقد ضرب صلى الله عليه وسلم مثلين، هما على طرفي نقيض لنوعين من الناس:

فالجليس الصالح ترتاح إليه النفس، ويطمئن له الفؤاد ، وتنتعش بقربه الروح ، ويطرب المرء لحديثه ، وينعم بمجالسته ، ويسعد لصحبته ... ولذا شبهه صلى الله عليه وسلم ببائع المسك، الذي هو أجود أنواع الطيب وأزكاها ، فهو إن لم تشتر منه ، فإنه يهديك ، أو تشم منه ريحا طيبة زكية فواحة .. فأنت معه في أريج دائم ، ونشوة غامرة .. أنت الكاسب على كل حال ، وفي جميع الظروف ، وكلما اقتربت منه وجالسته أكثر ، كان لك النفع ، وظفرت بمزيد الكسب ، لأن ما يحمله ليس فيه إلا كل النفع والخير ، حديثه خير ، وعمله خير ، فجليسه – ما دام بقربه – أيضا بخير .

وعكس هذا جليس السوء : شبهه الحديث بالحداد ، الذي ينفخ في كيره ، فأنت معه في خسارة دائمة ، إن لم يحرق ثيابك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب البيوع ، باب في العطار وبيع المسك ، رقم (٢١٠١) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء ، رقم (٢٦٢٨) واللفظ له .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بشرر ناره المتطاير ، زكم أنفك برائحة خبث الحديد الذي يصهره ، فصحبة هذا ... هم مقيم ، وغم لازم .

٢- ومن ذلك المثل الذي ضربه النبي ﷺ للتغاير بين حالي المنفق والبخيل : **((مثل المنفق والبخيل مثل رجلين ، عليهما جبتان من حديد ، من لدن ثدييهما إلى تراقيهما ، فإذا أراد المنفق أن ينفق ، سبغت عليه الدرع حتى تخفى بنانه ويعفو أثره ، وإذا أراد البخيل أن ينفق ، قلصت ولزمت كل حلقة موضعها ، حتى أخذت ترقوته أو بعنقه ، فهو يوسعها فلا تتسع))** [١]

إنهما رجلان ، أراد كل منهما أن يلبس درعا يستتر به من عدوه ، فجعل عليه السلام المنفق ، كمن لبس درعاً سابغة ، فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه ، وجعل البخيل ، كمثل رجل غلت يداه إلى عنقه ، كلما أراد لبسها ، اجتمعت عليه فلزمت ترقوته . [٢]

والمراد : أن الجواد إذا هم بالصدقة ، أنفسح لها صدره ، وطابت نفسه ، فتوسعت في الإنفاق ، والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت ، وضاق صدره ، وانقضيت يده .

هذه الأمثال وغيرها جارية على أسلوب : ((لا يعرُف فضل الشئ حتى تعُرف مساوئ نقيضه)) .

وهو أسلوب تربوي ، يعمل على تثبيت الفكرة في القلب ، ويغرس الفضل في النفس ، لأنها عرفت النقيض ومساويه ، فعافته وانصرفت عن مخازيه [٣] .

٦- الترغيب في الفضائل :-

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب مثل البخيل والمتصدق ، رقم (١٤٤٣) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب مثل المنفق والبخيل ، رقم (٢٣٥٩)

(٢) الترقوة : العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق .

(١) انظر : ظاهرة الأمثال لمصطفى الصياصنة ص ٩٩ ، ١٠٧ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من الآثار التربوية التقويمية للأمثال ، أنها ترغب في الفضائل وأعمال الخير ، وذلك عن طريق إظهارها بأحلى ثوب وأبهى صورة .

أ- فالصبر من الفضائل البشرية ، التي حرص الإسلام على تحبيبها إلى النفوس والحث عليها ، وقد ضرب النبي ﷺ مثلا للمؤمن الصابر ، تصيبه المصيبة ، من حمى أو وعك ، فيصبر ويحتسب ، فإذا به كالحديد تصيبه النار ، فتذهب عنه الخبث والأوساخ :

فعن عبد الرحمن بن أزهر عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : **((إنما مثل العبد المؤمن حين يصيبه الوعك أو الحمى ، كمثل حديدة تدخل النار ، فيذهب خبثها ، ويبقى طيبها))**[١]

فهذا مثل نبوي للصبر ، يبعث في النفس استجاشة دفاقة للتحلى به ، فكما تنقى النار الحديد من خبثه ، فإن المصائب تنقى المؤمن من الذنوب والآثام .. وهل هناك للمسلم أسعد من هذا الجزاء ؟ وهل هناك ما يهنأ به الصابر كمثل هذا المولد الجديد ؟! .

ب- والتعاون في حياة المسلمين اتجاه إيجابي بناء ، نحو الأفضل والأكمل والأمثل ، ومن هنا أمر الله به في كتابه ، وحث عليه النبي صلي الله عليه وسلم في سنته الشريفة ، وضرب لمبلغ ما ينبغي أن تكون عليه حال المسلمين من التعاضد والتآلف والوحدة الشعورية – مثلا بليغا ، يعد قمة في البلاغة ، وغاية في التصوير:

فعن النعمان بن يشير رضي الله عنه ، أن النبي صلي الله عليه وسلم : **((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ،**

---

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١ / ٣٤٨) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى))[١] .

فالمسلمون جسد واحد، تتفاعل أعضاؤه كافة لمصاب أحدها، كالبناء يتبع بعضه بعضا في الانهدام، ولكأن أجزاءه قد أخذ بعضها يدعو بعضا، وهو مثل بلغ الغاية، في التجسيد الحي المصور .

ومثيل هذا، الحديث الآخر، الذي أعطى فيه المؤمن – متكاتفا مع بقية إخوانه على البر والخير والتقوى – صورة البنيان – المتراصة أركانه، المتماسكة جنباته ، يشد بعضه بعضا ، فلا تهزه العواصف ، ولا تزعزعه الأعاصير ، بل هو يزداد على الأيام تماسكاً وصلابة :

فعن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي صلي الله عليه وسلم قال : **((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا))** ، ثم شبك بين أصابعه [٢] .

ففي هذا الحديث يجلى النبي صلي الله عليه وسلم حقيقة الترابط بين المؤمنين بهذا المثل الحي ، إنه ذلك البنيان الذي يتكون من تلك اللبنات المتعددة التي تتراص فيما بينها فيتكون منها قوة عظيمة لذلك البناء .

أرأيت حجارة الجدار ؟ ولبنات البيت ؟ وطوب الحصن ؟ هل اكتسبت أهميتها من ذاتها ؟ وهل كانت تغنى شيئا لو بقيت منفردة حتى ولو نفس جوهرها وغلا معدنها ؟

إن البناء العظيم المتكون من اللبنات المتراصة يقي حر الشمس وبرودة الشتاء، وإلية يفئ الإنسان يطلب السكن والراحة، وفي ظلاله يربي أبناءه ويسكن أسرته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم ، رقم (٦٠١١) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، رقم (٦٥٨٥)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا ، رقم (٦٠٢٦) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، رقم (٦٥٨٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ذلك البناء هو الدرع الذي يقي من هجمات العدو، ويهيئ لصاحبه القدرة على المقاومة، ويبوئه مكانة التربص بعدوه لينال منه حقه.

ذلك البناء هو الذي من خلاله يدير الإنسان شؤونه المتعددة في مجتمعه.

أريت هذه المعاني وتلك الفوائد ؟ هل يمكن أن تنشأ من خلال حجارة مبعثرة ؟ ولبنات مفرقة ؟ إنها لن تنشأ بدون جدال ، ومن هنا كان هذا المثل والتشبيه النبوي العظيم لوصف حالة المجتمع المسلم الذي هو الصورة البشرية للبناء المحكم العتيد .

إن في هذا التشبيه أعظم بلاغ لأن يعرف المسلم أهمية ترابطه مع إخوانه المسلمين لإقامة المجتمع المسلم ، وهو حين يكون متدينا وصالحا في نفسه ولكنه يعيش حياة الازورار ، وينكفئ على ذاته لا يعدو أن يكون كتلك الحجارة الجميلة المنظر ، القوية الذات ، ولكنها مقذوف بها جانبا ، فلا يتحقق من خلالها وإن غلت – ما سبق ذكـــــــره من الوظائف الاجتماعية .

وهذه النماذج من الأمثال غيض من فيض ، تحض على الفضيلة ، وترغب في مكارم الأخلاق ، وتسمو بالإنسان إلى الفعال الحسان ، وهو ما يؤكد ما للأمثال من دور ، في نشر الفضيلة ، وغرس قيمها في النفوس .

٧- التنفير من الرذائل :-

كما تضرب الأمثال للترغيب في الفضائل ، كذلك يلجأ إليها في التنفير من الرذائل ، والترهيب من الشر وقبائح الأفعال ، وذلك بإظهار مثل هذه الأمور بأبشع صورة وأقبحها ، ليتعظ منها كل متعظ .

أ-فمن قبيح الأفعال التي حرص الإسلام على استبعادها ، من حياة المجتمع المسلم ، ما يكون من بعض الناس ، من تساهل في تناول الأعراض العفيفة وهتك الأسرار المصونة ، **ففي الحديث : ((أن**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رسول الله صلي الله عليه وسلم اقبل على الرجال والنساء في المسجد ، وقال : هل منكم رجل ، إذا أتي أهله ، فأغلق عليه بابه ، وألقى عليه ستره ، واستتر بستر الله ، ثم يجلس بعد ذلك فيقول ، فعلت كذا ، فعلت كذا ..... وهل منكن من تحدث بمثل هذا ؟ ، فجثت فتاة كعاب ، على إحدى ركبتيها ، وتطاولت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليراها ويسمع كلامها ، فقالت : يا رسول الله إنهم ليتحدثون وإنهن ليتحدثنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل تدرون ما مثل ذلك ؟ إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانا في السكة ، فقضى منها حاجته والناس ينظرون)) (١)

فهل هناك ما هو أبلغ من هذا التمثيل، للرجل والمرأة – وقد سترهما الله بستره – وهما يأبيان إلا الفضيحة، وهتك الستر الذي ستره الله ؟!

نعم... إنهما شيطان لقي شيطانة، فقضى حاجته منها في الطريق والناس ينظرون....

ثلاث قبائح اجتمعت في هذا الفعل ، لا تزيد العاقل إلا نفوراً وإعراضاً :

§كونهما شيطانين .

§وكون جماعهما يتم على قارعة الطريق .

§وكونهما يفعلان ذلك على مرأى من الناس واجتماعهم عليهم ومن ذلك الرجل يتصدق بالصدقة ، مبتغيا في ذلك وجه الله تعالى ، طيبة بها نفسه ، فإذا بالشيطان يتسلل إلى مداخله ، فيتراجع عنها ، ويسترد ما أعطى ووهب ، مؤذيا – بفعله الدنئ هذا – من كانت في يده ...

لقد ضرب صلى الله عليه وسلم مثلا لمثل هذا الصنف من البشر ، بالكلب قاء ، ثم عاد إلى قيئه فأكله ، فعن عبد الله بن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب النكاح ، باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من إصابته أهله ، رقم (٢١٧٤) ،وأحمد في المسند (٢ / ٥٤٠ – ٥٤١) ، وفي سنده مجهول ، وهو الشيخ الطفاوى ، لكن للحديث شواهد يتقوى بها ، ذكرها الألباني في الإرواء (٧ / ٧٣)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**مثل الذي يتصدق بالصدقة ، ثم يرجع فيها ، كمثل الكلب قاء ، ثم عاد في قيئه ، فأكله**))[١]

إن مثل هذا الفعل القبيح، لا يمكن صدوره عن نفس طيبة كريمة ، إنه سبب في إبطال الصدقات ، والذهاب بأجرها ، فجاء هذا المثل النبوي غاية في التشنيع عليه ، عن طريق تشبيهه بالصورة القبيحة ، التي تناسب قباحته ودناءة صاحبه .

وبذا يتضح لنا بجلاء، كيف أن مثل هذه الأمثال تترك أثراً كبيراً في نفس المتلقي، إذ تصور الرذيلة والشر بأقبح صورة، مما يحمل نفسه على الشعور بالاشمئزاز والنفور من قربها ، إنه أسلوب تجسيدي قد يكون أبلغ أثراً من الاكتفاء بالنهي الصريح ، الذي قد يمله السامع غالبا ، هذا بالإضافة إلى أنه قد لا يفي بالمطلوب في إشعاره بجسامة المنهي عنه .

٨- مدح الصالحين وذم الفاسقين :

من السمات البارزة في أمثال السنة النبوية المطهرة، أنها تأخذ خط امتداح المؤمنين الصالحين، بإيمانهم وصلاحهم، لحمل الآخرين على الإقتداء بهم وتمثل سلوكهم، والتهوين من شأن الكفرة والفاسقين والحط من قدرهم، بهدف التنفير منهم ، ودفع الناس إلى اجتناب طريقهم ، وهي غاية تربوية ، جليلة القدر ، عظيمة الأثر ، بلا أدنى ريب .

فالأمثال النبوية تكثر من امتداح المؤمنين وأهل الصلاح والفضل والخير، بما فيهم من الخصال الطيبة والصفات النبيلة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بألفاظ مختلفة ، كتاب الهبة ، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته ، رقم (٢٦٢٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الهبات ، باب تحريم الرجوع في الصدقة بعد القبض إلا ما وهبه لولده وإن سفل ، رقم (١٤٧٠) ، وأبو داود في سننه ، كتاب البيوع ، باب الرجوع في الهبة ، رقم (٣٥٣٩) ، والترمذي في سننه ، كتاب البيوع ، باب الرجوع في الهبة ، رقم (١٢٩٩) وقال : حسن صحيح ، والنسائي في سننه ، كتاب الهبة ، باب رجوع الوالد فيما يعطي ولده ، رقم (٣٦٩٢) ، وابن ماجه في سننه ، كتاب الهبات ، باب من أعطى ولده ثم رجع فيه ، رقم ٢٣٧٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كما وتلح على الإعلاء من شأنهم، بهدف الترغيب في الاحتذاء بهم، والإقتداء بخصالهم، وسلوك سبيلهم ....

أ- فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : **((والذي نفسي بيده إن مثل المؤمن كمثل القطعة من الذهب ، نفخ عليها صاحبها ، فلم يتغير ولم ينقص ، والذي نفسي محمد بيده ، إن مثل المؤمن كمثل النحلة ، أكلت طيبا ، ووضعت طيبا ، ووقعت فلم تكسر ولم تفسد))** [١] .

لقد مثل صلى الله عليه وسلم للمؤمن بأمرين ، هما غاية في الكرامة ورفعة الشأن ... مثل له بقطعة الذهب، لا تزداد على الصرف إلا لمعانا وجودة وإشراقا... وبالنحلة أكلت طيبا، ووضعت طيبا، ووقعت فلم تكسر.

نعم إن المصائب وتوالى البلايا والنكبات، لا تزيد المؤمن إلا إيمانا وثباتا على المبدأ والمنهج والطريق .. كالذهب تماما، كلما عرضته للنار ، عاد أكثر أصالة وجودة وحسن جوهر ، بل ازداد – على ما كان عليه – لمعانا وتلألؤا وإشراقاً ، لم ينقص ، ولم يتغير .

وأيضاً طيب... فيما يأخذ، وفيما يعطي، لا يأخذ إلا الطيب والحسن والجميل، ولا يعطي إلا الطيب والحسن والجميل ، وإذا امتحن وابتلى لم يتضعضع أو يرتد ، ولم يتحول نهجه وتفسد حاله ، كالنحلة تأكل طيبا ، وتعطي شرابا طيبا شهيا ، مختلفا ألوانه ، فيه شفاء للناس ، وهي إذا وقعت وقعت خفيفة ، بكل رفق ولين ...

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٢) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٩٥) : ((رجاله رجال الصحيح)) ، وصححه الشيخ شاكر في تحقيقه للمسند (٩٠/١١ رقم ٦٨٧٢) ، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٧٥/١) وقال : ((هذا حديث صحيح فقد اتفق الشيخان على الاحتجاج بجميع رواته غير أبي سبرة الهذلي وهو تابعي كبير مبين ذكره في المسانيد والتواريخ غير مطعون فيه)) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان رقم (٣٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إنه المثل الذي يمتدح أهل الفضل بما فيهم ، ويبرز ما عندهم من الفضائل ، ونبيل الصفات ، وحميد الخصال ، وما هم عليه ، من الوضاءة وبديع الإشراق ، ليقتدي بهم ، ويُسار وفق نهجهم ويسلك طريقهم[1].

وعكس ذلك تماما ، ما ضربه النبي صلى الله عليه وسلم مثلا للمنافق ، فقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم المنافق – الذي ارتضى لنفسه إلا يتخذ موقفاً محدداً ، من مسألة الإيمان والكفر = بالشاة المترددة بين الغنمين ، كلما ذهبت إلى طرف ، نطحت وطردت ، فظلت على حال لا تحسد عليها ، من الضياع والتردد والشتات :

ب – فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة ، لا تدري أيها تتبع))** [2].

وفي رواية أخرى : **((مثل المنافق كمثل الشاة بين الغنمين ، إن أقبلت إلى هذه الغنم نطحتها ، وإن أقبلت إلى هذه نطحتها))** [3]

وهل هناك أسوأ حالا من حال هذا المنافق ، الذي لا يثبت على طريق ، ولا يلتزم منهجا ولا طائفة ؟ فكانت النتيجة ضياعة والتياعه بين القطيعين ، لا يدري إلى أي منهما ينتمي ... بل إن جاء إلى هؤلاء طردوه ونهروه ، وإن أتى أولئك نطحته كباشهم ودفعوه ..

لقد عرفوا حقيقته ، وخبروا تذبذبه وسماجة شأنه ، فكان له منهم ما كان وما لقى ، وهذا تهوين بالغ لشأن هذه الطائفة من

---

(١) انظر : ظاهرة الأمثال ص ١١٠ ، ١١١

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صفات المنافقين ، باب صفات المنافقين وأحكامهم ، رقم (٢٧٨٤) ، والنسائي في سننه ، كتاب الإيمان ، باب مثل المنافق ، رقم (٥٠٤٠) ، وأحمد في مسنده (٣٢/٢ ، ٦٨)

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢ / ٨٢)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

النـاس ، يبعـث فـي الـنفس الـشعور بتفاهـة الممثـل لـه وردائـة موقفه .

ولا شك أن كل من يتأمل في معطيات هذا المثل وسابقيه ، لا بد أن يلتزم جانب الاتعاظ والارتداع عن أن يكون من أمثال هذه الزمرة ، التي لا مذهب لها ولا اتجاه .

.... وهكذا نرى كيف تؤدي الأمثال دورها التربوي ، في إعلان شـأن نهـج الـصلاح والخيـر ، والحـط مـن الـشر ، مـع التهـوين المزري ، من شأن أهله وسالكي سبله [١] .

٩- غرس مفهوم التوافق بين القول والعمل :

إن القول الجاد هو الذي يتبعه عمل متميز ، هكذا ينبغي أن يكـون الأمـر ، أمـا أن يتفـوه الإنـسان بقـول لا يعتـزم العمـل بمدلوله ، والأخذ بمقتضاه ، فهذا لا يوجد مطلقاً ما يبرره ، ومن ثـم فالعاقـل هـو الـذي يفكـر مليـا ، فـي الكلمـة – مـدلولاً ومنطقـاً والتزاما – قبل أن تصبح في ملك المتلقي وحوزة السامع ، فإن كان عازماً على الإنفاذ أفصح وقال ، وألا أمسك لسانه ... لأن القول المجرد من العزم على التنفيذ ، سمة من سمات هشوشة الخلق ، ورداءة الطبع ، وضعف العزيمة والوازع .

وقد أنحى القرآن الكريم باللائمة، على أولئك النفر ، الذين تسول لهم نفوسهم الضعيفة ، التساهل في تحقيق الموائمة بين أقوالهم وأفعالهم ، وعد ذلك منهم ، من أقبح الفعال الممقوتة عند الله ، وأشدها كرها ، وأعظمها نكراً :

((يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)) [٢] .

---

(١) انظر : ظاهرة الأمثال ص ١١٣ - ١١٥

(١) سورة الصف / ٢ ، ٣

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إن هاتين الآيتين تحملان في طياتهما – كما هو واضح جلي - كل معاني الاستنكار والتهديد ، بأشد أنواع العقوبة والردع ، للمؤمن الذي يقول ما لا يفعل ، وتحددان جانباً أصيلاً في بناء شخصية المسلم ... جانبا يقوم على أساس الاستقامة والصدق، جانباً أساسه الموائمة بين الظاهر والباطن، بين القول والفعل.

ولعل من أدق التوجيهات النبوية وألطفها في هذا الاتجاه، ما رواه أبو داود وأحمد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: **((آتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم – وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله ، تعال أعطك ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ فقالت: تمراً، فقال : أما إنك لو لم تفعلي ، كتبت عليك كذبة))**[1]

وقد بالغت الأحاديث الصحيحة، المروية عن المصطفى صلى الله عليه وسلم في لفت الانتباه إلى ضرورة تقيد المسلم بهذا المفهوم، في حياته وكامل شأنه، حتى إن الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) ، جمع في كتابه الشهير : ((اقتضاء العلم العمل))[2] حوالي عشرين حديثاً مرفوعاً ومئة وأربعين أثراً موقوفاً ، كلها تؤكد – من قريب أو بعيد – على وجوب التزام المسلم العمل بعلمه ، وإلا كان ذلك العلم وبالا عليه في دنياه وآخرته .

ومن هذه الأحاديث المشار إليها، ما رواه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **((يؤتي بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون : مالك يا فلان ؟ ألم تكن تأمر**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب التشديد في الكذب ، رقم (٤٩٩١) ، وأحمد في مسنده (٣ / ٤٤٧) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢ / ٣١٠) رقم (٤٧٨)

(٢) الكتاب نشر المكتب الإسلامي بيروت سنه (١٣٨٦هـ) بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ ، فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه)) [١]

فهذا رجل آتاه الله علما، ورزقه فهما وإدراكاً، فكان يعلم الناس ويرشدهم، يعظهم ويذكرهم، ولكنه ما كان يفعل الخير الذي يأمرهم به، ولا يجتنب الشر الذي كان ينهاهم عنه ، فغدا علمه وبالا عليه ، وسببا في هلاكه ودماره ، ومدرجة لدخوله النار .....

وإنها لصورة تقشعر لها الأبدان ، وترتعد الفرائص .. صورة ذلك الرجل ، وقد مسخ حماراً ، واندلقت أمعاء بطنه ، يجرها خلفه ، وقد راح يدور بها – وسط سعير النار المتأججة – والناس متحلقون حوله ، يسألونه مستغربين عما آل إليه من سوء الجزاء ، وقد عهدوه لهم واعظا ومرشداً ...

إنها النهاية الأليمة المفجعة ، التي أقل ما يقال فيها : إنها تفجع القلب ، وتذيب الفؤاد ... وهل أوجع على النفس وأنكي ، من أن ترى إنساناً يضل بسبب عمله ويشقى ، ويكفيه مسخا تمثيل النبي صلي الله عليه وسلم له – وهو يفتل حول نفسه ، يجر أقتاب بطنه – بالحمار يدور حول رحاه ؟!

ب- وفي حديث آخر ، أعطى عليه الصلاة والسلام هذا الصنف من الناس مثلاً آخر :

فعن جندب بن عبد الله ، أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : **((مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه ، مثل مصباح يضئ للناس ويحرق نفسه))** [٢]

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة ، رقم (٣٢٦٧) ، وصحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهي عن المنكر ويفعله ، رقم (٧٤٨٣) .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٧/٢ رقم ١٦٨١) وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٥٦ ، ١٢٧) وقال : إسناده جيد ، كما وعلق عليه في تخريج أحاديث اقتضاء العلم العمل للخطيب رقم (٧٠) بقوله : حديث صحيح .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إنه مصباح .... مصباح يضئ للناس الطريق ، فيستفيدون منه ، ويعرفون المحجة بسببه ، غير أنه يحرق نفسه دونما فائدة يكتسبها ، إذ لا يستفيد شيئاً من هذا العلم الذي يعلمه الناس .

وهكذا كل عالم لا يعمل بعلمه ، يحرقه علمه هذا الذي تعلمه ، ويدخله ناراً يتلظى سعيرها لهيباً متقداً متأججاً ....

وهذا أساس عظيم من أسس التربية ..... أن تولد في الناشئة فكرة ضرورة اقتران العلم بالعمل ، وأنهما توأمان لاينفصلان بحال من الأحوال .

١٠- التهوين من شأن الدنيا :

وتهوين شأن الدنيا – في نظر المتعلم – له أثره الفاعل ، في تكوين شخصيته وإنماء اتجاهه وتقرير سلوكه ، إذ يبعده عن التعلق بغثائها الحطيم ، التعلق الذي يصرفه عن العمل للآخرة والإقبال عليها .

وإذا ما انصرف المسلم ، عن التعلق بحطام الدنيا الزائل ، وصرف قلبه عن التوجه بكليته إليها ، ليستقبل النظر إلى يوم المعاد ، والتوجه لما يتطلبه من الزاد ، ظل مخبتا لله في كل آن ، واستطاع أن يحقق التوازن المطلوب ، بين العمل الدؤوب لعمارة الأرض وفق المنهج الرباني السليم ، وحسن التوجه إلى الآخرة ، وفق مسلك قوامه القصد والاعتدال والصواب ....

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً للدنيا يبين تفاهة شأنها ، وضآلة حالها ، قياسا إلى ما في الدار الآخرة من نعيم وخلود :

أ- فقال صلي الله عليه وسلم : **((والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع))** [١] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ونعيمها ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، رقم (٧١٩٧) ، والترمذي في سننه ، كتاب الزهد ، باب منه حديث : ((ما الدنيا في الآخرة ....) رقم (٢٣٢٣) وقال : حديث حسن صحيح .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لقد شبه صلي الله عليه وسلم قيمة الحياة الدنيا بما فيها من أموال ، وكنوز ، وقصور ، وعمارة في الآخرة ، بالماء الذي يرجع مع أصبع أحدنا إذا أدخله الماء ، وفي هذا تقريب للمعنى الحقيقي لكثير من الآيات والأحاديث التي ذمت الدنيا ورغبت في الآخرة ، فمهما كانت النفوس ضعيفة منهمكة في جمع حطام الدنيا ، فإن هذا التشبيه الرائع لابد أن يحدث فيها هزة قوية توقظها من غفلتها وانكبابها على الشهوات ، لتضعها على الاعتدال الذي يرضي الله تعالى به .

ومن فوائد هذا الحديث : إضافة لإيقاظ القلب من الغفلة ، وشد النفس نحو الآخرة ، إنه يميت الطمع عند المرء ، ويدفعه إلى الزهد وبذل الأموال في أمور الخير ، ويقتل فيه أمراض النفس ، كالبخل والحسد والحرص وغيرها .

ب- وفي حديث أخر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلي الله عليه وسلم وقد نام على رمال وحصير ، وقد أثر في جنبه ، فقلنا : يا رسول الله ، لو اتخذت لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه ؟ ، فقال : **((ما لي وللدنيا ، ما أنا والدنيا ، إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها))** [1].

فقد مثل صلي الله عليه وسلم الدنيا بظل شجرة زائل ، أتاه مسافر فقال تحته، حتى إذا ذهب عنه تعبه ، تركه وتابع سيره نحو بغيته .....

وكذا الدنيا .... ليست أكثر من معبر ، يوصلنا إلى الآخرة ، وما علينا أن ننظر إليها ، بأكثر مما ينظر المسافر إلى ظل ، يقيل تحته مدة وجيزة ، ثم يتابع سفره ....

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الزهد ، باب حديث : ((ما الدنيا إلا كراكب استظل)) رقم (٢٣٧٧) وقال : حسن صحيح .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإذا كان الأمر كذلك ، فالعاقل الحكيم لا يتشبث بها ، ولا يجعل منها همه الشاغل له ، بل هو دائماً ينتظر ارتحاله عنها ، فيتعامل معها على هذا الأساس .

ولله در من قال :

النفس تبكي على الدنيا وما علمت * أن السلامة فيها ترك مـا فيها**

لا دار للمـرء بعـد المـوت يـسكنهـــــا * إلا التـي كـان قبـل المـوت بانيهـــا**

فـإن بناهـا بخيـر طـاب مـسكنهـــــا * وإن بناهـا بـشـــر خـاب بانيهـــا**

لا تركنن إلى الدنيا وما فيهـا * فلا شك أن الموت يفنينا ويفنيها**

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المؤلفات في الأمثال

لقد كان لعناية القرآن الكريم والحديث الشريف بالأمثال الأثر البالغ في توجه العلماء إلى التصنيف فيها ، فألفوا في أمثال القرآن الكريم ، وأمثال الحديث الشريف ، وأمثال العرب ، والذي يعنينا هنا إنما هو المصنفات في الأمثال النبوية ، وبالرجوع إلى المكتبة الحديثية نجد فيها مصنفات قد تمحضت للأمثال النبوية ، ومصنفات أخرى قد اشتملت عليها ضمن ما ذكرت من أمثال أخرى تتعلق بالقرآن الكريم وأمثلة العرب ، وهذا بيان بأهم المصنفات في هذا الباب .

أولاً : سنن الترمذي :

لقد خصص الإمام محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٥هـ) كتاباً للأمثال في جامعة ، تحت عنوان : (أبواب الأمثال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وهي سبعة أبواب اشتملت على أربعة عشر حديثاً [١].

ولهذا يقول ابن العربي : (ولم أر أحداً من أهل الحديث صنف فأفرد لها بابا غير أبي عيسى ، ولله دره ، لقد فتح بابا ، فما بنى قصراً أو داراً ، ولكن اختط خطا صغيراً ، فنحن نقتنع به ونشكره عليه)[٢] .

١- انظر فيه ٥ / ١٤٤ – ١٥٤ .
٢ - عارضة الأحوذي ٦ / ٣ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثانياً : كتاب (الأمثال من الكتاب والسنة) :

للحكيم الترمذي (أبو عبدالله محمد بن على [٣١٨هـ وقيل بعدها]) .

والكتاب في ثلاثة أقسام : الأول لأمثال القرآن ، والثاني للحديث والخبر ، والثالث لأمثال الحكماء ، ولم يكن نصيب الأمثال من الكتاب والسنة أكثر من خمس الكتاب ، مما يرجح أن الكتاب لم يختص بأمثال الكتاب والسنة .

وقد تضمن الكتاب اثنين وثلاثين مثلاً من الأحاديث والآثار الموقوفة على بعض الصحابة والتابعين ، وقد حذف المؤلف الأسانيد ، ويغفل أحياناً ذكر الصحابي راوى الحديث ، كما لم يعن ببيان درجة الحديث [١] .

ثالثا : كتاب (أمثال الحديث) للعسكري .

يقول الميداني في مجمع الأمثال [٢] : (وأما الكلام النبوي من هذا الفن – يقصد الأمثال – قد صنف العسكري فيه كتاباً برأسه ، ولم يأل جهداً في تمهيد قواعده وأساسه) .

والعسكري المؤلف في الأمثال اثنان ، قال الكتاني في الرسالة المستطرفة [٣] : (ولأبي الحسن على بن سعيد بن عبدالله العسكري (عسكر سامرا) نزيل الري الحافظ المتوفي في سنة خمس وقيل سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ، وكتابة الأمثال جمع فيه ألف حديث مشتملة على ألف مثل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهكذا أبو أحمد العسكري في أمثاله) .

وأبو أحمد هو الحسن بن عبدالله بن سعيد بن إسماعيل بن زيد بن حكيم اللغوي العسكري ، نسبة إلى عسكر مكرم ، المتوفى سنة (٣٨٢هـ) والكتابان مفقودان .

---

١ - طبع كتاب الحكيم الترمذي سنة (١٩٧٥م) بتحقيق السيد على محمد البجاوي .
٢- ٤/١
٣- ص ٤٢ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

غير أن الدكتور محمد جابر فياض يقول عن كتاب أبي أحمد : (إن النقول والعزو إليه في كتب الحديث مما مكنني من جمع ما يقرب من مائتي حديث مما اشتمل عليه ، وقد تبين لي من خلال النقول أن منهجه إفراد الأحاديث بأسانيدها ورواياتها المختلفة ، مع الشرح ، والبيان ولكنه لا يبين درجتها) [١].

رابعاً : كتاب (الأمثال السائرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) :

لأبي عروبة الحسين بن محمد بن أبي معشر الحراني ، المتوفى سنة (٣١٨هـ) ، ويبدو من عنوان الكتاب أن مؤلفه اقتصر فيه على نوع واحد من الأمثال ، وهو المثل السائر المشتهر على الألسنة [٢].

خامساً : كتاب (أمثال الحديث) :

للحسن بن عبدالرحمن بن خلاد الرامهرمزي (ت ٣٦٠ هـ) ، وقد تضمن ما يزيد على مائة وعشرين مثلاً من أمثال الحديث ، موزعة على سبعة كتب صغيرة ، شملت أمثال التمثيل خمسة منها ، والكتابان الأخيران في أنواع مختلفة من التمثيل مقسمة إلى ثلاثة عشر بابا .

أما منهجه فيه ، فقد جاء بالأحاديث مسندة ، ولم يعقب عليها ببيان درجتها ، غير أنه تولى شرحها وأسهب فيه ، مستشهداً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المشابهة لتلك الأمثال ، والأبيات الشعرية ، فهو كتاب قيم في بابه ، لا يغنى عنه غيره [٣].

سادساً : كتاب (الأمثال في الحديث النبوي صلى الله عليه وسلم) :

---

١ ـ الأمثال في الحديث الشريف ص ٤٧ .
٢ـ ذكر هذا الكتاب فؤاد سزكين في تاريخ التراث العرب ٤٤٢/١ .
١ـ الكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور عبدالعلي عبدالحميد الأعظمي ، وطبعته الدار السلفية ببومباي بالهند سنة (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣ م)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لأبي الشيخ ، عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان ، أبو محمد ، المعروف بأبي الشيخ ، المتوفى سنة (٣٩٦هـ) .

وهذا الكتاب يشتمل معظمه على الأمثال التي أسندت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وألحق المؤلف في أخره أمثالا لبعض الحكماء وبخاصة الأمثال المنسوبة إلى أكثم بن صيفي الحكيم .

وقد بدأ المؤلف كتابه بالأمثال السائرة فذكر منها حوالي (١٢٣) مثلاً ، ثم ثناه بالقسم الثاني الذي هو من نوع التمثيل ، وكان هدف المؤلف جمع هذه الحكم والأمثال النبوية فقط ، فلم يتعرض لها بالشرح والتأويل بخلاف الرامهرمزي الذي يتكلم باسهاب عن كل حديث فيه تمثيل [١].

سابعاً : أمثال الحديث في البيان والتبيين ، للجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥) .

يبدو أن أبا عروبة وغيره ، ممن ضمنوا كتبهم أمثال الرسول صلى الله عليه وسلم السائرة كانوا قد تأثروا بالجاحظ ، فقد جاء في كتابه (البيان والتبيين) قوله :

(وسنذكر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما لم يسبقه إليه عربي ، ولا شاركه أعجمي ، ولم يدع لأحد ، ولا أدعاه أحد مما صار مستعملاً ، ومثلاً سائراً)[٢] .

وبرهن على سيرورتها أمثالاً ، فقال : فمن ذلك قوله : (يا خيل الله اركبي) ، وقوله : (مات رغم أنفه) ، وقوله (الآن حمى الوطيس) ، وأورد طائفة غير قليلة من مثل هذه .

فإذا كان الإمام الترمذي – رحمه الله – قد فتح بابا – كما قال ابن العربي – لكونه أورد ما أورده من أمثال التمثيل ، التي وجد فيها لفظ المثل صريحاً ظاهراً فإن الجاحظ قد فتح الباب لهذا النوع من الأمثال ، التي كلفته الاستدلال لها والبرهنة على مثيلتها .

٢- الكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور عبدالعلي عبدالحميد ، وطبعته الدار السلفية بالهند سنة (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .
١ - البيان والتبين ٢ / ١٥ – ١٦ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثامناً : :كتاب (شهاب الأخبار من الوصايا والأمثال النبوية ، والحكم والآداب المصطفوية) .

لمحمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت ٤٥٤هـ) ، وقد أوضح المؤلف في مقدمته ، ما تضمنه الكتاب ، ومنهجه فيه ، فقال : (... وقد جمعت في كتابي هذا ما سمعته من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف كلمة من الحكمة في الوصايا والمواعظ والأمثال... وجعلتها مسرودة يتلو بعضها بعضاً ، محذوفة الأسانيد ، مبوبة أبواباً على حسب تقارب الألفاظ ، ليقرب تناولها ، ويسهل حفظها ، ثم زدت مائتي حديث فصار ألف كلمة ومائتي حديث ، وأفردت للأسانيد جميعها كتاباً في معرفتها [١].

وعرف هذا الكتاب باسم (مسند الشهاب) ومعظم أحاديثه ضعيفة .

تاسعاً : كتاب (الأخبار والمواعظ والأمثال):-

لمحمد بن إبراهيم الخازني ، وقد وضع فيه ستمائة وخمسين خبراً ومثلاً مرتبة على حروف المعجم ، محذوفة الأسانيد ، وأكثرها ليس من الأحاديث النبوية [٢].

عاشراً : كتاب (أمثال الحديث مع تقدمه في علوم الحديث) :

للدكتور عبد المجيد محمود ، وهو يشتمل على قسمين :

التقدمة في علوم الحديث وقد جاءت في خمس وسبعين صفحة .

أما القسم الثاني المتعلق بالأمثال فقد مهد له بالحديث عن معنى المثل ، وأنواعه ، وضربه ، وأهميته في الكلام ، ومن ألف فيه ، وأمثال الحديث ، ومنهجه في عرضها ، وملخص هذا المنهج أنه بدأ بإيراد الأمثال القياسية معلقاً عليها بشئ من الشرح مع تبويبها في خمسة موضوعات ، ثم أورد نماذج للمثل السائر ، ثم

---

١ ـ مسند الشهاب ، المقدمة ، وقد طبع هذا الكتاب ، طبعته مؤسسة الرسالة سنة (١٤٠٧هـ)

٢ ـ الكتاب مخطوط بمكتبة الأوقاف العراقية ببغداد .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

خرج الأحاديث التي سردها الميداني في آخر كتاب (مجمع الأمثال) مكتفياً بمصدرين أو ثلاثة [١].

الحادي عشر : كتاب (الأمثال في الحديث النبوي الشريف) للدكتور محمد جابر فياض العلواني والكتاب يشتمل على قسمين :

القسم الأول : وهو قسم الدراسة وقد بين فيه المؤلف معنى المثل لغة واصطلاحاً ، ثم ذكر ما يتعلق بضرب المثل وأهميته وغرابته ، ثم تناول المؤلفات في الأمثال النبوية ، ثم عقد فصلا لبيان كثرة الأمثال وأهميتها في التراث الديني والجاهلي ، ثم بين في فصل أخر أنواع المثل ، وأعقب ذلك بخاتمة .

القسم الثاني : وهو قسم الجمع والتخريج ، وقد بين في مقدمته منهجه في جمع الأمثال وتخريجها ، ثم ذكر الأمثال مخرجاً إياها ومرتباً لها على حروف المعجم [٢].

هذا ما وقفت عليه من الكتب المؤلفة في الأمثال النبوية ، قديمها وحديثها ، وآن لنا أن نشرع في دراسة أمثاله صلى الله عليه وسلم وتبيان ما فيها من درر المعاني وروائع الحكم .

*****

الدراسة التحليلية للأمثال النبوية

انتهينا في الصفحات السابقة من الدراسة الموضوعية للأمثال في السنة النبوية، والتي عرضنا فيها:

- **تعريف المثل لغة واصطلاحاً.**

١- الكتاب مطبوع ، طبعته مكتبة البيان بالطائف ط ٢ (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م) .
٢- الكتاب مطبوع ، طبعته المؤيد بالرياض ، ط١ (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

- **الفرق بين الحكمة والمثل.**
- **أنواع الأمثال في السنة النبوية.**
- **معنى ضرب الأمثال.**
- **أهمية الأمثال.**
- **الأمثال واستنباط الأحكام الشرعية.**
- **الآثار التربوية للأمثال.**
- **المؤلفات في الأمثال.**

والآن نشرع – بعون الله تعالى – في الدراسة التحليلية للأمثال في السنة النبوية ، آخذين في الاعتبار جمع الأمثال المتعلقة بموضوع واحد في وحدة واحدة ، ودراستها وفق هذه الرؤية حتى يتجلى الأمر ويتضح المقصود ، فإلى ذلك بتوفيق الله .

المثل الأول

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **((مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع ، تفيئها الريح ، تصرعها مرة ، وتعدلها أخرى حتى تهيج ، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها ، لا يفيئها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة))**[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **((مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الريح تميله ، ولا يزال**

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المرضى ، باب ما جاء في كفارة المرض ، بألفاظ متقاربة ، رقم (٥٦٤٣) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب مثل المؤمن كالزرع والمنافق والكافر كالأرزة ، بلفظه، رقم (٧٠٩٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المؤمن يصيبه البلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز ، لا تهتز حتى تستحصد)) . [١]

وفي رواية أخرى قال : قال رسول الله ﷺ: **((مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع ، من حيث أتتها الريح كفأتها ، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء ، والفاجر كالأرزة صماء معتدلة ، حتى يقصمها الله إذا شاء))** [٢] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : **((مثل المؤمن كمثل السنبلة ، تخر مرة وتستقيم ، ومثل الكافر كمثل الأرزة ، لا تزال مستقيمة حتى تخر ولا تشعر))** [٣] .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : **((مثل المؤمن كمثل السنبلة ، تميل أحيانا ، وتقوم أحيانا))** [٤] .

---

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب مثل المؤمن كالزرع والمنافق والكافر كالأرزة ، بلفظه ، رقم (٧٠٩٢) ، والترمذي في سننه ، كتاب الأمثال ، باب ما جاء في مثل المؤمن ..... بلفظه ، رقم (٢٨٦٦) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المرضى ، باب ما جاء في كفارة المرض ، بلفظه ، رقم (٥٦٤٤) ، وكتاب التوحيد ، باب في المشيئة والإرادة ، رقم (٧٤٦٦) ، وأحمد في المسند (٥٢٣/٢)

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ، بلفظه (٣/ ٣٤٩) ، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير (٢ / ١٥٤) للضياء المقدسي في المختارة ، ورمز له بالحسن ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٩٦) : ((رواه أحمد ، وفيه ابن لهيعة وفيه كلام ، ورواه البزار ورجاله ثقات))، وعقب المناوى في فيض القدير (٥/ ٥١٢) – بعد ذكر كلام الهيثمي – على حكم السيوطي : ((وبه يعرف أن المصنف لو عزاه للبزار لصحة سنده كان أولى)) .

(٢) الحديث أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/ ٤١ ، ٤٢ رقم ٣٢٨٦) ، والبزار في مسنده (كشف الأستار ٣٣/١٠ رقم ٤٨) ، وأبو الشيخ في أمثاله ص ٣٩٢ رقم (٣٤١) ، والبخاري في التاريخ (٣ / ٢/ ٤) ، وفيه : عبيد بن مسلم صاحب السابرى ، ذكره البخاري في التاريخ (٤/٣/٢) وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٣/٦) وسكتا عليه ، وذكره ابن حبان في الثقات (١٥٨/٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٩٦) : ((ورواه البزار وفيه عبيد الله بن سلمه صاحب السابرى ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح)) .

- وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٥/ ٤٠٦ رقم ٣٠٨٠) وفيه فهد بن حيان ، قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٩٣) : ضعيف))
- قلت : وكثرة طرق الحديث وشواهده ، وقد مر بعضها ، ترقى به إلى مرتبة الحسن ، والله أعلم .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المباحث اللفظية

مثل : المثل – بفتحتين – كالمثل – بكسر فسكون – والمثيل في الأصل : النظير والشبيه ، وكأنه مأخوذ من المثول – وهو الانتصاب ، ثم أطلق على الكلام البليغ الشائع الحسن ، المشتمل : إما على تشبيه بلا شبيه ، أو استعارة رائعة تمثيلية وغيرها ، أو حكمة وموعظة نافعة ، أو كناية بديعة ، أو نظم من جوامع الكلم الموجز .

المؤمن : الإيمان له في لغة العرب استعمالان :

لأنه [تارة] يتعدى بنفسه ، فيكون معناه التأمين ، أي إعطاء الأمان ، تقول : آمنت فلانا إيمانا ، وأمنته تأمينا بمعنى واحد ، قال تعالى : ((وآمنهم من خوف)[١] ، ومنه اسم الله تعالى ((المؤمن)) لأنه أمن عباده من أن يظلمهم .

[وتارة] يتعدى بالباء أو اللام فيكون معناه : التصديق ، قال تعالى : ((قولوا آمنا بالله))[٢] ، وقال تعالى : ((أفتطمعون أن يؤمنوا لكم))[٣] .

قال علماء الاشتقاق : هذا المعنى الثاني راجع إلى الأول ، لأن من صدقك فقد أمنك من التكذيب والمخالفة [٤] .

---

(١) سورة قريش /٤ .
(٢) سورة البقرة / ١٣٦ .
(٣) سورة البقرة / ٧٥
(٤) انظر : المختار من كنوز السنة ص ٦٩ ، روح المعاني (١١٠/١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

- **والإيمان في عرف الشرع :** هو التصديق بما علم مجئ النبي صلي الله عليه وسلم به ضرورة تفصيلا فيما علم تفصيلا ، وإجمالا فيما علم إجمالا ، وهذا مذهب جمهور المحققين [١] .

وقال أبو عبيد : ((الأمر الذي عليه السنة عندنا ما نص عليه علماؤنا : أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعاً))[٢] ، أي إنه اعتقاد بالجنان ، وقول باللسان ، وعمل بالأركان .

البلاء : يقال : بلى الثوب بلاً وبلاءً ، أي خلُقُ ، وبلوته ، اختبرته ، كأني أخلقته من كثرة اختباري له ، وقرئ : ((هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت)) [٣] ، أي تعرف حقيقة ما عملت ، ولذلك يقال : بلوت فلانا ، أي اختبرته ، وسمي الغم بلاء من حيث إنه يبلى الجسم ، وسمي التكليف بلاء لأن التكاليف مشاق على الأبدان ، أو لأنها اختبارات ، ولهذا قال تعالى : ((ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين))[٤] ، وهو تعالى عالم بهم بدون اختبار ، وإنما معناه : حتى يظهر في الوجود ما في علمنا ، وقيل معناه : حتى يتميز .

واختبار الله تعالى لعبادة تارة يكون بالمسار ليشكروا ، وتارة بالمضار ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء ، فالمحنة مقتضية للصبر ، والمنحة مقتضية للشكر ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فصارت المنحة أعظم البلائين ، وقد جاء ذلك ، أعنى المنحة والمحنة في قوله تعالى : ((وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم)) [٥] .

فالمحنة : راجعة إلى ما تقدم من ذبح أبنائهم ، واستحياء نسائهم للخدمة ، والمنحة راجعة إلى قوله تعالى : ((وإذ نجيناكم من آل فرعون)) [٦] .

---

(١) روح المعاني (١١٠/١) ، عمدة القارى (١٦/١) .
(٢) الإيمان لأبي عبيد ص ٦٦ .
(٣) سورة يونس /٣٠
(٤) سورة محمد /٣١
(١) سورة البقرة /٤٩
(٢) سورة البقرة /٤٩

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وابتلى وبلى يتضمن أمرين :

أحدهما : تعرف حاله وما يجهل من أمره .

والثاني : ظهور جودته ورداءته .

ففي جانب الباري تعالى ، إذا قيل ابتلى الله كذا ، وأبلى كذا ، لم يكن إلا بمعنى ظهور جودة المبتلى ، كقوله تعالى : ((وإذ ابتلى إبراهيم ربه)) [١]، أو رداءته نحو : ((كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون))[٢] ، وقد يقصد به الأمران معا نحو : بلوت زيداً ، إذا قصدت المعنيين المذكورين [٣] .

الخامة من الزرع : بالخاء المعجمة وتخفيف الميم ، ما كان غضا رطبا من النبات أول ما ينبت ، وقال ابن سيده : هي النبات أول ما ينبت على ساق واحدة ، وقيل : هي الشجرة الغضة الرطبة ، والجمع خام وخامات [٤] .

تفيئها الريح : بتشديد الياء وهمزة بعدها ، من فاء ، أي مال ورجع ، يقال : فاء الرجل يفيئ فيئا ، بمعنى رجع ، وفي التنزيل : ((حتى تفئ إلى أمر الله)) [٥] ، أي : حتى ترجع إلى الحق ، ويقال : فاء الظل يفئ فيئا ، رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق ، وجمع فئ : فيوء وأفياء ، مثل : بيوت وأبيات ، ومعنى تفيئها الريح : تميلها يميناً وشمالاً ، فهو من أفاءه بمعنى : آماله .

قال التوربشتي : وذلك أن الريح إذا هبت شمالاً مالت الخامة إلى الجنوب وإذا هبت جنوباً فيأت في جانب الشمال [٦] .

وفي الراوية الأخرى : ((كفأتها)) ، ومعنى التكفؤ : الميل ، يقال : السفينة تتكفأ ، أي تتمايل على سمتها التي تقصد [٧] ، وعليه فمعنى (كفأتها) : أمالتها .

---

(٣) سورة البقرة /١٢٤

(٤) سورة الأعراف /١٦٢

(٥) انظر : عمدة الحفاظ (٣٥٦/١- ٣٥٨) ، المفردات ص ٦١ ، بصائر ذوى التمييز (٢٧٤/٢-٢٧٥) .

(١) النهاية في غريب الحديث (٨٩/٢) ، فتح الباري (١١/١٠) .

(٢) سورة الحجرات /٩ .

(٣) مرقاة المفاتيح (٢٢/١)

(٤) عمدة الحفاظ (٣٠٤/٣)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقوله : ((فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء)) : يعني : إذا اعتدلت الخامة مالت مرة أخرى بالريح ، وهكذا شأن المؤمن يتكفأ بالبلاء .

تصرعها مرة : هذه الجملة جاءت مبينة لما قبلها ، ولهذا فصلت عنها ولم تعطف عليها .

- ومعنى تصرعها : تغلبها وتهوى بها حتى تكاد لشدة إناخة الريح لها أن تمس الأرض .

وتعدلها أخرى : بفتح التاء وسكون العين ، وبضم التاء وتشديد الدال : أي تقيمها وتنهضها ، يقال : عدل العود يعدله ، أي : نصبه وأقامه .

قال ابن حجر : ((وكأن ذلك باختلاف حال الريح ، فإن كانت شديدة حركتها فمالت يميناً وشمالاً حتى تقارب السقوط ، وإن كانت ساكنة أو إلى السكون أقرب أقامتها)) [١]

والحاصل : أن المؤمن لا يخلوا من علة أو قلة أو ذلة ، كما روى ، وكل ذلك من علامة السعادة بشرط الصبر والرضا والشكر .

حتى يهيج : يقال : هاج الزرع يهيج هياجاً ، إذا اصفر ويبس وبلغ إبان حصاده ، كما قال تعالى :

((ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً)[٢].

- **الكافر** : الكفر بالضم مقابل الإيمان ، وأصله المأخوذ منه ((الكفر)) – بالفتح مصدر بمعنى الستر ، يقال : كفر يكفر من باب قتل ، وسمي الكافر الشرعي كافراً لأنه ستر الحق وغطى عليه ، وسمي الليل كافراً لستره الأشياء بظلامه .

- والكافر على الإطلاق : من جحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة .

قال الألوسى : ((والذي عول عليه الشافعية في تعريفه : أنه إنكار ما علم مجيء الرسول ﷺ به مما اشتهر حتى عرفه الخواص والعوام ...) [٣]

---

(١) فتح البارى (١١١/١٠)
(٢) سورة الزمر /٢١
(١) روح المعاني (١٢٦/١)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المنافق : مادته ((**نفق**)) والنفق : الطريق النافذ والسرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر ، قال تعالى : ((فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض)) [١] ، ومنه النفاق الشرعي لأنه خروج من الإسلام بضرب من الحيل ، وهو إبطان غير الظاهر ، وهذا شأن المنافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر .

قال ابن الأعرابي : وسمي المنافق منافقاً لثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يسر كفره ويخفيه فشبه بالذي يدخل السرب يستتر فيه .

والثاني : أنه نافق كاليربوع ، وذلك اليربوع له جحران ، أحدهما : يقال له النافقاء ، والآخر القاصعاء ، فإذا طلب من النافقاء خرج من القاصعاء .

والثالث : أنه شبه به لمخادعته ، وذلك أن اليربوع يحتفر الأرض من تحتها حتى يرققها جداً ، فإذا طلب من باب جحره عمد إلى ذلك الموضع الذي رقق ترابه بحفره ودفعه برأسه خارجاً ، فظاهر جحره أرض وباطنه حفر ، فكذلك المنافق ظاهره مؤمن وباطنه كافر ، بل جعلهم الله شراً من الكفرة [٢] حيث قال :

((إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار)) [٣]

الفاجر : الفجر ، شق الشئ شقا واسعاً ، يقال : فجرته فانفجر ، وفجرته فتفجر ومنه قيل للصبح فجراً ، لكونه فاجر الليل .

والفجور : شق ستر الديانة ، وقيل ، هو هيئة حاصلة للنفس بها يباشر الأمور على خلاف الشرع والمروءة [٤] .

وجمع الفاجر : فجار وفجرة ، قال تعالى : ((كلا إن كتاب الفجار لفي سجين)) [٥] ، وقال تعالى : ((أولئك هم الكفرة الفجرة)) [٦] .

---

(٢) سورة الأنعام /٣٥
(٣) انظر : عمدة الحفاظ (٤/ ٣٦٧٦)
(٤) سورة النساء /١٤٥
(١) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٥٥٠
(٢) سورة المطففين /٧
(٣) سورة عبس /٤٢

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولا خلاف بين هذه الروايات لتعدد هذا الوصف ، حيث جاء مرة ((الكافر)) ، ومرة ((المنافق)) ومرة ((الفاجر)) فإن الروايات يفسر بعضها بعضاً ويكون المراد من الكل مدلولاً واحداً ، وهو الكافر .

كمثل الأرزة : الأرزة : بفتح الهمزة وسكون الراء ، هي واحدة الأرز ، وهو شجر الصنوبر ، وقيل شجر آخر يشبهه ، وهو معروف بقوته وصلابته وشدة رسوخة في الأرض ، ولعله شجر الأرز المعروف في لبنان بهذا الاسم .

المجذية على أصلها : بضم الميم وسكون الجيم وكسر الذال ، أي الثابتة المتمكنة في أرضها فلا تنال منها العواصف ، ولا تؤثر فيها الأعاصير .

صماء : أي صلبة شديدة بلا تجويف .

يقصمها : القصم ، الكسر والهشم ، ويعبر به عن الهلاك ، والقصم كسر وبينونة ، والفصم من غير بينونة .

انجعافها : بجيم ومهملة ثم فاء ، أي انقلاعها ، تقول : جعفته فانجعف ، مثل : قلعته فانقلع ، ونقل ابن التين عن الداودى : أن معناه انكسارها من وسطها أو أسفلها [١]

وعليه فيكون المراد من القصم في الرواية السابقة : القلع ، أو ما هو أعم من القصم والقلع ، وهو الإفساد إفساداً لاصلاح بعده ، وجاء التعبير من كل الراويين داخلاً تحت هذا العام .

تستحصد : بفتح أوله وكسر الصاد ، وقيل بضم أوله وفتح الصاد على ما لم يسم فاعله ، والأول أجود ، أي لا تتغير حتى تنقلع مرة واحدة كالزرع الذي انتهى يبسه [٢] .

والمراد تشبيه الكافر في بقائه على حاله من النعمة والصحة وكثرة المال والولد ، غير مبتلى في نفسه وأهله وماله وولده حتى يموت

---

(١) انظر : فتح الباري (١١/١٠)
(٢) شرح مسلم للنووي (١٥١/١٧ ، ١٥٢)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فيلقى الله بذنوبه وافرة ، كشجرة الأرز في ثباتها على حالها حتى يأتيها من يقلعها .

بيان التمثيل في الحديث

في هذا المثل يرسم النبي ﷺ لكل من المؤمن والكافر صورة صادقة تنطبق على حاله ، وتفسر موقف كل منهما حيال المصائب والأحداث التي تنوبه في هذه الحياة ، ومدى استجابته لها ، وتأثره وانتفاعه بها .

فهو يشبه المؤمن إذ لا يزال البلاء يلم به الفينة بعد الفينة :

- تارة في نفسه بالمرض والآلام ، أو بتسلط بعض السفلة واللئام من الناس يؤذونه ويكيدون له بأنواع الكيد ، ويشيعون عنه مقالة السوء .
- وتارة في ماله بالآفات والجوائح التي تذهب بكله ، أو بعضه
- وتارة في أهله وولده بالموت ، أو بأن يراهم على حالة تسوءه وتحزنه .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إلى غير ذلك من أنواع المصائب التي يفتن بها المؤمن ، كما يفتن الذهب على النار ، إلى أن يستوفى أجله الذي كتب له في هذه الحياة .

ولكنه في خلال هذه المحن ، وبين نوبات المصائب ، يجد من عناية الله ولطفه ما يـــجبر كسره ويقوى عزمه وينعش نفسه من البلاء إلى العافية ، ومن جهد الشقاء إلى بحبوحة الرخاء .

فالحديث يضرب لهذا المؤمن المتردد بين نوائب الخير والشر مثلا بالخامة من الزرع ، لا تزال الريح تداعبها وتميلها عن استقامتها ، فتارة تصرعها فتهوى بها منخفضة ذاهبة ذات اليمين وذات الشمال ، وتارة تسكن عنها فتعود سيرتها الأولى من الاستواء والاعتدال ، ويظل هذا شأنها حتى تيبس وينضب ماؤها ، ويـــجئ أوان حصادها وتبلغ أجلها المحتوم .

ومما تضمن هذا التشبيه من الأسرار والدقائق : أن البلاء فيه بالنسبة للمؤمن شبه بالريح بالنسبة للخامة ، والريح من شأنها أن تصلح الزرع وتساعد على نموه ونضوجه ، لأنها تقلبه ذات اليمين وذات الشمال في صعود وهبوط ، فتواجهه أشعة الشمس ، وتتغلغل في ثناياه ، فتكسبه الحياة والقوة حتى يستوي قائماً على سوقه ، ثم يهيج في عاقبة أمره .

فكذلك البلاء للمؤمن يصهره ويصفى جوهره ، ويكسبه قوة ومنعة ، ويزيد من تجاربه وخبرته ، فهو له كالنذر المتوالية والمواعظ المتعاقبة صادفت قلباً واعيا ، وضميراً حيا مستجيبا ، فأفادته وأثرت فيه .

ولا يزال المؤمن على ذلك حتى يوافيه أجله الذي كتب له ، فيلقى الله – عز وجل – وهو قرير العين ، منشرح الصدر ، بما كسب في الدنيا من خير ، وبما أعد له في الآخرة من أجر .

وأما الكافر والمنافق فما أشنع حاله ، وما أسوأ عاقبته ، يترك كالبهيمة السائمة ، يرتع في مراتع اللهو ، ويخوض في

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بؤر الفسق ، ويكرع من المشارب الآسنة ، ويرد الموارد المنتنة ، وهو سادر في غيه ، غافل عن عاقبة أمره ، لا يتأثر لحادث ، ولا يرق لموعظة ، ولا ينتفع بما يمر عليه من محن وأرزاء .

ولا يزال – هكذا – في جموده وتبلده حتى تقرعه قارعة الموت ، وتنزل بساحته المنون ، فيموت ميتة جاهلية ، لا تتبعه إلا الحسرة والندامة وسوء المصير .

وما أشبهه في ذلكم بالأرزة الثابتة في أرضها ، المجذية على أصلها ، الصلبة الجذع والساق والفروع ، لا تنال منها الزعازع ، ولا تؤثر فيها العواصف ، ولا تزال هكذا حتى تنقطع من جذورها ، فإذا هي هشة ممدودة على الأرض ، قد فارقها ما كان لها من شموخ وقوة .[١]

وسبب المفارقة بين المؤمن والفاجر في هذا ، أن الله ينظر إلى عباده المؤمنين نظرة إشفاق وتفضل ، فينزل بهم البلايا ليكون لهم منها أجر وتكفير للذنوب ، كما يدل على ذلك ما رواه البخاري وغيره ، من قوله ﷺ : **((ما يصيب المسلم من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم – حتى الشوكة يشاكها – إلا كفر الله بها من خطاياه))**[٢] .

وأما الفاجر، فإن الله لا ينظر إليه هذه النظرة ، فلا يبتليه كما يبتلى المؤمن ، بل يعافيه في دنياه ، وييسر له فيزيد طغيانه ، كما قال تعالى : ((إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى)) [٣] .

وأبين في الإشارة إلى هذا قوله تعالى : ((ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة

---

(١) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد (١ / ١١٨) ، عارضة الأحوذي (٣١٠/١٠) ، فيض القدير (٥/ ٥١٢) ، من روائع الهدى النبوي ص ١٠٢- ١٠٦

(١) صحيح البخاري ، كتاب المرضى ، باب ما جاء في كفارة المرض ، رقم (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) عن أبي سعيد ، وعن أبي هريرة .

(٢) سورة القلم / ٦ ، ٧ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسرراً عليها يتكئون ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين))[1] .

ويتضح مما تقدم الغرض من تشبيه المؤمن بالخامة التي تميلها الريح ثم تعتدل ، أن بلايا الحياة التي تصيبه فيصبر ، إنها وإن كانت في ظاهرها ضارة فإنها في الحقيقة نافعة لما ذكرنا من تكفيرها لذنوبه ، كما أن الخامة تميل مع الريح ، فإمالة الريح لها نفعتها من حيث إنها بقيت حية ولم تنكسر .

ولا يعقل أن يكون الغرض من التشبيه ، أنه تصيبه المصائب ثم تقلع عنه دون نظر إلى ما في ذلك من صبر ونفع ، لأن مجرد توارد المصائب عليه مشاهد ولا ميزة في سوق الحديث له ، فضلا عن أن وصف المؤمن بصفة هذا النبات ووصف الكافر بالأرزة في صلابتها لا يعطينا فضلا يمتاز به المؤمن على الفاجر ، بل يعطينا إذا نظر إليه من حيث الظاهر المحسوس ميزة للفاجر على المؤمن ، إذ الأول كثير الشقاء والثاني دائم السعادة ، ولا يظهر فضل المؤمن إلا إذا كان التشبيه المذكور في الحديث مسوقاً للغرض الذي كشفنا عنه .

وفي **قوله :** ((يقصمها الله إذا شاء)) إشعار بهذا ، لأن التعبير بالقصم يجئ في جانب المرذول المستكره الذي لا يرحم ، فيكون مقابله مما أريد به الرحمة والإحسان .

وكذلك سوقه التشبيه في الأول للمؤمن ، وفي الثاني للفاجر ، وهذا يدل على أنه ينظر إلى وصف الإيمان والفجور ، فلا بد أن يكون لكل من الوصفين دخل في الغرض الذي سيق له التشبيه ، والإيمان يقتضى الإحسان والتفضل من الله عز وجل والفجور يقتضى عكس هذا .

---

(٣) سورة الزخرف / ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هـذا وتمثيـل المـؤمن بـالزرع وتمثيـل المنـافق والفـاجر بالشجر العظام يشتمل على فؤاد جليلة منها:

١- أن الشجر قوى مستكبر لا يتأثر من حر ولا برد ، ولا من كثرة ماء ، ولا ريح ، أما الزرع فإنه ضعيف مستضعف يتأثر بكل ذلك ، وهذا هو الفرق بين المؤمنين والكاذبين ، وبين أهل الجنة وأهل النار ، كما في الصحيحين عن حارثة بن وهب عن النبي ﷺ **أنه قال : ((ألا أخبركم بأهل الجنة وأهل النار ؟ أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ [١] مستكبر))** [٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **((تحاجت الجنة والنار ، فقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ ، وقالت النار : ما لي لا يدخلني إلا الجبارون المتكبرون .... الحديث))** [٣] .

وقد ورد في القرآن تشبيه المنافقين بالخشب المسندة مع حسن منظرهم فقال : ((وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم))[٤] .

فوصغهم بحسن الأجسام وتمامها، وحسن المقال وفصاحته ، حتى يعجب منظرهم من يراهم ، ويسمع قولهم من سمعه سماع إصغاء وإعجاب به ، ومع هذا فبواطنهم

---

(١) العتل : الشديد الجافي ، والفظ الغليظ من الناس ، والجواظ : الجموع المنوع ، وقيل : الكثير اللحم المختال في مشيته .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب سورة (ن) رقم (٤٩١٨) ، صحيح مسلم ، كتاب الجنة ونعيمها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ، رقم (٧١٨٣) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب قوله ((وتقول هل من مزيد)) رقم (٤٨٥٠) ، ومسلم في صحيحة ، كتاب الجنة ونعيمها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ، رقم (٧١٧٥) .

(٤) سورة المنافقون / ٤ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

خراب ، ومعانيهم فارغة ، فلهذا مثلهم بالخشب المسندة التي لا روح لها ولا إحساس ، وقلوبهم مع هذا ضعيفة في غاية الضعف : ((يحسبون كل صيحة عليهم)) لأنهم لما أضمروا خلاف ما أظهروا خافوا من الإطلاع عليهم ، فكلما سمعوا صيحة ظنوا أنها عليهم ، وهكذا كل مريب يظهر خلاف ما يضمر يخاف من أدنى شئ ، ويتحسر عليه .

وأما المؤمن فبعكس هذه الصفات ، غالبهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم ولباسهم وكلامهم ، لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة أجسادهم ، فقلوبهم ثابتة قوية عامرة فيكابدون بها الأعمال الشاقة في طاعة الله من الجهاد والعبادات والعلوم وغيرها مما لا يستطيع المنافق مكابدته لضعف قلبه .

فالمؤمن لما اشتغل بعمارة قلبه استضعف ظاهره ، وربما أزدرى، ولو علم الناس ما في قلبه لما فعلوا ذلك .

إن المؤمن قوى القلب ثابت على الإيمان ، فالإيمان الذي في قلبه مثله كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، فيعيش على الإيمان ، ويموت ويبعث عليه ، وإنما الرياح ، وهي بلايا الدنيا تقلب جسمه يمنة ويسرة ، أما قلبه فلا تصل إليه الرياح لأنه محروس بنور الإيمان .

والكافر والمنافق والفاجر بعكس ذلك ، جسمه قوى لا تقلبه رياح الدنيا ، وأما قلبه فإنه ضعيف تتلاعب به الأهواء المضلة ، فتقلبه يمنة ويسرة ، فكذلك كان مثل قلبه كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، كشجرة الحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت في الأرض .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقال علي رضي الله عنه، في صفة الهمج الرعاع: أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا منه إلى ركن وثيق [١] .

وبهذا يظهر الجمع بين حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع والفاجر بشجرة الأرز ، وبين حديث تمثيل المؤمن بالنخلة .

فإن التمثيل بالزرع لجسده لتوالي البلاء عليه، والتمثيل بالنخلة لإيمانه وعمله وقوله ، يدل عليه قوله عز وجل : ((ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة)) [٢] فجعلها مثلاً لكلمة الشهادتين التي هي أصل الإسلام ، وثبوتها في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض ، وارتفاع عمل المؤمن إلى السماء كارتفاع النخلة ، وتجدد عمل المؤمن كل حين كإتيان النخلة أكلها كل حين .

٢- أن ثمرة الزرع ، وهو السنبل يستضعف ويطمع فيه كل أحد لقرب تناوله ، فيطمع الآدمي في الأكل منه وفي قطعه وفي سرقته ، وتطمع البهائهم في رعيه ، وتطمع الطير في الأكل منه ، وكذلك المؤمن يستضعف فيعاديه عموم الناس لأن الإسلام بدأ غريبا ويعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء .

فعموم الخلق يستضعفه ويستغربه ويؤذيه لغربته بينهم ، وأما الكافر والمنافق أو الفاجر الذي كالصنوبرة ، فإنه لا يطمع فيه ، فلا الرياح تزعزع بدنه ، ولا يطمع في تناول ثمرته لامتناعها .

وقال المسيح لحواريه وقد شكوا إليه بغض الناس إياهم : ((كذلك المؤمنون مبغوضون في الناس ، وإنما مثلهم كمثل حبة القمح ما أحلى مذاقها وأكثر أعدائها)) .

---

(١) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١ / ٥٠)
(٢) سورة إبراهيم / ٢٤ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٣- أن المؤمن يمشى مع البلاء كيفما مشى به فيلين له ، فيقلبه البلاء يمنة ويسرة ، فكلما أداره استدار معه ، فتكون عاقبته العافية من البلاء ، وحسن الخاتمة ، ويوقى ميتة السوء ، فلهذا كان مثله كمثل السنبلة تقلبها الرياح يمنة ويسرة فلا تضره الرياح ، كما في أمثال العرب : إذا رأيت الرياح عاصفا فتطامن ، وإذا رأيت الأمر عاليا فاخضع له .

أما الفاجر فإنه لقوته وتعاظمه يتقاوى على الأقدار ويستعصى عليها ، كشجرة الصنوبر التي تستعصي على الرياح ولا تتطامن معها ، فيسلط عليه ريح عاصف لا يقوى عليها فتقلعه من أصله بعروقه فتهلكه ، وهذا كما حكى الله عن عاد ، قال تعالى : ((كأنهم أعجاز نخل خاوية))[١]

فالمؤمن لما تواضع لعظمة الله ، وصبر على بلائه ، كانت عاقبته الجنة ، وسلم في الدنيا والآخرة من البلاء ، وكانت العافية له .

والفاجر لما تكبر وتقاوى على أقدار الله عجل الله عقوبته ، فسلط عليه بلاء يستأصله ولا يقدر على الامتناع منه ، كالشجر العظام التي تقتلعها الرياح بعروقها .

قال بعضهم شعرا :

إن الرياح إذا عصفن فإنما *** تولى الأذية شامخ الأغصان

وقال غيره :

من أخمل النفس أحياها وروحها * ولم يبت طاويا منها على ضجر**

إن الرياح إذا اشتدت عواصفها * فليس ترمى سوى العالي من الشجر**

---

(١) سورة الحاقة / ٧

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٤- أن الزرع وإن كانت له طاقة منه ضعيفة ضئيلة، إلا أنه يتقوى بما يخرج معه وحوله ويعتضد به ، بخلاف الشجر العظام فإن بعضها لا يشد بعضاً ، وقد ضرب الله تعالى مثل نبيه ﷺ وأصحابه بالزرع لهذا المعنى ، قال تعالى ، ((ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه)) [١] .

قوله : ((أخرج شطئه)) أي فراخه ، ((فآزره)) : أي ساواه وصار مثل الأم وقوى به ، ((فاستغلظ)) : أي غلظ فاستوى على سوقه .

فالزرع مثل النبي ﷺ، إذ خرج وحده فأمده بأصحابه ، وهم شطأ الزرع كما قوى الطاقة من الزرع بما ينبت منها حتى غلظت واستحكمت .

وقد قال عز وجل :

((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)) [٢]
فالمؤمنون بينهم ولاية وهي مودة ومحبة باطنه ، كما قال تعالى : ((إنما المؤمنون أخوة)) [٣] وذلك لأن قلوبهم على قلب رجل واحد فيما يعتقدونه من الإيمان .

أما المنافقون فقلوبهم مختلفة وأهواؤهم مختلفة ولا ولاية بينهم في الباطن، كما قال تعالى: ((تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى))[٤] ، وإنما بعضهم من جنس بعض في الكفر والنفاق كما قال تعالى ((والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض)) [٥]

٥- أن الزرع ينتفع به بعد حصاده ، فإنه يحصده أربابه ثم يبقى منه بعد حصاده ما يلتقطه المساكين وترعاه البهائم وتأكله الطير ،

---

(١) سورة الفتح / ٢٩
(٢) سورة التوبة / ٧١.
(٣) سورة الحجرات / ١٠ .
(٤) سورة الحشر / ١٤
(١) سورة التوبة / ٦٧

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وربما استخلف بعضه فأخرج منه ثانية ، وبيع منه من الحب ما ينبت مراراً ، وهكذا مثل المؤمن يموت ويخلف ما ينتفع به ، من علم نافع ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح ينتفع به .

وأما الفاجر فإنه إذا اقتلع من الأرض لم يبق فيه نفع ، بل ربما أثر ضرراً ، فهو كالشجرة المنجعفة لا تصلح إلا لوقود النار .

٦- أن الزرع مبارك في حمله ، كما ضرب الله مثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، وليس كذلك الشجر لأن كل حبة مما تغرس منه لا تزيد على نبات شجرة واحدة منها .

٧- أن الحب الذي ينبت منه الزرع هو قوت الآدميين وغذاء أبدانهم وسبب حياة أجسادهم، فكذلك الإيمان هو قوت القلوب، وغذاء الأرواح وسبب حياتها، ومتى فقدته القلوب ماتت، وموت القلوب لا يرجى معه حياة أبدا ، بل هو هلاك الدنيا والآخرة ، **كما قيل شعراً :**

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحيـــــــــاء

فلذلك شبه المؤمن بالزرع حيث كان الزرع حياة الأجساد ، والإيمان حياة الأرواح ، وأما الأشجار العظام كالصنوبر ونحوه ، فليس له كبير نفع ، وربما لا يتضرر بفقده ، فلذلك مثل الفاجر والمنافق بهذه الشجرة لقلة نفع ثمره [١] .

(١) انظر : غاية النفع لابن رجب الحنبلي ص ٢٢ – ٣٢ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

موضوع المثل

تتناول الأحاديث التي معنا قضية من أهم القضايا في الحياة الإنسانية، ألا وهي قضية الابتلاء ، والابتلاء : امتحان واختبار يوضع فيه الإنسان ليرى أيشكر عند النعماء ويصبر عند البأساء فيكون من الفائزين ، أم يطغى عند المنحة ويقنط عند المحنة فيكون من الخاسرين ، وحتى تتضح معالم هذه الأحاديث بصورة أوضح نتناول هذه القضية في النقاط التالية :

١)الابتلاء سنة إلهية .

٢)مظاهر الابتلاء .

٣)أقسام الناس في الابتلاء .

٤)المؤمن مبتلى .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٥)الحكمة من ابتلاء المؤمنين

٦)موقف المؤمن من الابتلاء .

٧)الابتلاء وتكفير الذنوب .

٨)الذنوب التي يكفرها الابتلاء .

٩)هل يستدعى المؤمن الابتلاء .

١٠) الثمرات المجتناة من المثل

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أولاً : الابتلاء سنة إلهية

حين خلق الله تعالى الحياة والأحياء في هذه الدار ، اقتضت حكمته عز وجل أن تكون حياة الناس مزيجا من السعادة والشقاء ، والفرح والترح ، والأنس والوحشة ، والسعة والضيق ، واللذة والألم ، يستوي في ذلك جميع الناس ، سواء كانوا مؤمنين أو كفاراً ، سادة أم سوقة .

وما من إنسان – أيا كان – إلا وفي حياته أيام من هذا ، وأيام من ذلك ، هذه هي طبيعة الحياة ولله رد من قال :

الدنيا هبات وعوار مستردة * شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة**

وهذه النظرة الصحيحة للحياة الدنيا هي التي حرص الإسلام على غرسها وتثبيتها وتنميتها في قلوب الناس جميعاً ، حتى لا تطغيهم نعمة ، ولا تيئسهم نقمة .

يقول تعالى : ((الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً))[١] ، ويقول عز من قائل : ((هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)) [٢] ويقول سبحانه : ((إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً)) [٣]

فالإنسان خلق ليبتلى ، أي ليختبر ، ولما كان الابتلاء والاختبار لمن تخفى عليه عاقبة الأمور ، قيل : إنه هنا تمثيل واستعارة ، فشبه معاملته تعالى عباده في خلق المنافع لهم ، وتكليفهم شكره ، وإثابتهم إن شكروا ، وعقوبتهم إن كفروا ، بمعاملة المختبر – بكسر الباء – المختبَر – بفتح الباء – ليعلم حاله ، ويجازيه ، فاستعير له الابتلاء على سبيل التمثيل .

---

(١) سورة الملك / ٢
(٢) سورة هود / ٧
(٣) سورة الكهف / ٧

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفي قصر الابتلاء والمفاضلة فيما ابتلوا فيه، على الأعمال الحسنة – إشارة إلى ما يجب أن يكون من الناس، وهو العمل في ميدان الإحسان وحده، والتنافس بينهم في هذا المجال، ففي ذلك ينبغي أن يتنافس المتنافسون.

إن الإنسان في هذه الحياة أشبه بحبة بذرت في الأرض مع ما بذر من حبوب، ثم لا تلبث كل حبة أن تكشف عن حقيقتها، وعن الثمر الذي تثمره من جيد أو ردئ، فإذا آن وقت الحصاد، جمع كل زرع مع ما يشاكله:

((فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا)[١]

ويقول سبحانه مبينا الحكمة من خلق الإنسان : ((إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كافوراً)) [٢]

فهذه الآيات تقرر أن الإنسان محور وجوده الابتلاء ، وأن نتيجة الابتلاء شكر أو كفر ، وحين يدرك الإنسان ذلك ، يشعر بجدية الأمر ، ويدرك أنه مخلوق لغاية ، وأنه مشدود إلى محور ، وأنه مزود بالمعرفة فمحاسب عليها ، وأنه هنا ليبتلى ويجتاز الابتلاء ، فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لا في فترة لعب ولهو وإهمال ! .

ويقول سبحانه مبينا الحكمة من جعل الناس خلائف في الأرض : ((وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ....)) [٣] .

يقول صاحب تفسير المنار : ((هذه الآية مبينة لبعض أحوال البشر التي نعبر عنها في عرف هذا العصر بالسنن الاجتماعية ..... والمعنى : إن ربكم الذي هو رب كل شئ هو الذي جعلكم خلائف هذه الأرض بعد أمم سبقت ولكم في سيرتها عبر ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الخلق والخُلق ،

---

(١) سورة الجن / ١٥ .
(٢) سورة الإنسان / ٢ ، ٣ .
(١) سورة الأنعام / ١٦٥ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والعز والذل ، ليختبركم فيما أعطاكم ، أي يعاملكم معاملة المختبر لكم في ذلك ، فيبنى الجزاء على العمل ، بمعنى أن سننه تعالى في تفاوت الناس فيما ذكرنا من الصفات الوهبية والأعمال الكسبية ، هي التي يظهر بها استعداد كل منهم ، ودرجة وقوفه في تصرفه في النعم والنقم عند وصايا الدين وحدود الشرع ووجدان الاطمئنان في القلب .

والحقوق والواجبات تختلف باختلاف أحوال الناس في تلك الدرجات ، وسعادة الناس أفراداً وأسراً وأمما ، وشقاوتهم في الدنيا والآخرة تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم في مواهبهم ومزاياهم وما يبتليهم به تعالى من النعم والنقم ، ولا شئ مما يطلبه الناس من سعادة الدنيا ونعمها أو رفع نقمها ، أو من ثواب الآخرة والنجاة من عذابها إلا وهو منوط بأعمالهم التي ابتلاهم بها بحسب ما قرره شرعه المبنى على توحيده المجرد ، ومضت به سننه في نظام الأسباب والمسببات ، فبقدر علمهم وعملهم بالشرع وسنن الكون والاجتماع البشري يكون حظهم من السعادة)) .

ثم يضرب صاحب المنار أمثلة على سريان هذه السنة في حياة البشر ، ويردف ذلك ببعض الآيات التي جاءت في معنى هذه الآية ، ثم يقول : ((أرشدنا الله تعالى في هذه الآيات وأمثالها إلى طريق الاستفادة من سننه في جعلنا خلائف في الأرض ، ورفع بعضنا درجات على بعض ، بأن نصبر في البأساء والضراء ، ونشكر في السراء .... والمسلمون أجدر الناس بالصبر – والصبر عون على الجهاد والجلاد ، ومنجاة من جميع الشدائد والأهوال – وأحقهم بالشكر ، والشكر سبب المزيد من النعم ، فلو كانوا مهتدين به كما يجب لكانوا أعظم الناس ملكاً ، وأعدلهم حكما، وأوسعهم علماً ، وأشدهم قوة ، وأكثرهم ثروة ، وكذلك كان به سلفهم ، وقد أخبرهم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الله بأنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ....) [1] .

وليس أدل على أهمية إدراك هذه السنة الدائبة من تعدد الآيات المؤكدة لسريانها ، والحاثة على وجوب التبصر بها لكل من وهب نفسه للقيام على أمر هذا الدين ، لكن فيما ذكرناه كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ثانيا : مظاهر الابتلاء

للابتلاء في حياة الناس مظهران لا ثالث لهما ، خير وشر ، يسر وعسر ، منح ومنع ، نعمة ونقمة ، سلب وعطاء ، شدة ورخاء ، فـــ

الدنيا هبات وعوارٍ مستردة * شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة**

قال الراغب: ((إن اختبار الله تعالى للعباد تارة يكون بالمسار ليشكروا ، وتارة يكون بالمضار ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء ، فالمحنة مقتضية للصبر ، والمنحة مقتضية للشكر)) [2]

وقد أشار القرآن الكريم وكذلك السنة المطهرة إلى هذين المظهرين ، قال تعالى : ((ونبلوكم بالشر والخير فتنة))[3] ، وقال تعالى : ((وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون)) [4] ، وقال تعالى : ((فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . كلا)) [5] .

---

(١) تفسير المنار (٨ / ٢٢٠ – ٢٢٣)
(١) المفردات صـــ ٦١
(٢) سورة الأنبياء /٣٥
(٣) سورة الأعراف / ١٦٨
(٤) سورة الفجر / ١٥ - ١٧

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فهذه الآيات تشير إلى أن الابتلاء كما يكون بالشر يكون بالخير ، وكما يكون برغد العيش وسعة الحياة وبسط الرزق ، يكون كذلك بشظف العيش وضيق الرزق وشدائد الأمور .

وليس الابتلاء بالمنح للكرامة أو بالمنع للإهانة ، ذلك تصور الإنسان ، والإنسان في كلتا الحالتين مخطئ في التصور ومخطئ في التقدير ، فبسط الرزق أو قبضه ابتلاء من الله لعبده ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر ، ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر ، والجزاء على ما يظهر منه بعد ، وليس ما أعطى من عرض الدنيا أو منع هو الجزاء ... وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا ، ورضي الله أو سخطه لا يستدل عليه بالمنح والمنع في هذه الأرض ، فهو يعطي الصالح والطالح ، ويمنع الصالح والطالح ، ولكن ما وراء هذا وذلك هو الذي عليه المعول ، إنه يعطي ليبتلى ، ويمنع ليبتلى ، والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء [1].

ويقول النبي ﷺ مشيراً إلى مظهري الابتلاء في حياة المؤمن : **((عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))** [2] .

وإذا كان الأمر بهذا الشمول ، فلنذكر صوراً لكل من الابتلاء بالمحنة والابتلاء بالمنحة ، ثم نعقب بتبيان الفرق بين المظهرين ، فأقول وبالله التوفيق .

أولاً : صور الابتلاء بالمحنة :

١- ابتلاء الخليل إبراهيم عليه السلام بذبح وحيده وفلذة كبده الذي رزق به بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، لكنه استسلم هو وابنه لمراد الله ، فكانت رحمة الله لهما بالفداء ، قال تعالى : ((قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما

---

(١) انظر : الظلال (٦ / ٣٩٠٥)

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير ، رقم (٧٥٠٠)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم)) [١] .

يقول الألوسي: ((أي الابتلاء والاختبار البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره ، أو المحنة البينة ، وهي المحنة الظاهرة صعوبتها ، وما وقع لا شئ أصعب منه ، ولا تكاد تخفي صعوبته على أحد ، ولله عز وجل أن يبتلى من شاء بما شاء وهو سبحانه الحكيم الفعال لما يريد)) [٢] .

ويماثل هذه الصورة من الابتلاء ، ابتلاء المؤمن بفقد عزيز عليه كأبيه أو أمه أو ولده ، قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال : **((ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة))** [٣] **.**

٢- التعذيب والإيذاء والتخويف ، وقد حدث لنبينا ﷺ وصحابته الكرام من ذلك الشئ الكثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين .

عن أنس قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : **((لقد أخفت في الله وما يُخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله لم يؤذ أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شئ يواريه إبط بلال))**[٤]

قال الترمذي : ((معنى هذا الحديث حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هارباً من مكة ومعه بلال ، إنما كان مع بلال من الطعام ما يحمل تحت إبطه)) [٥] .

---

(١) سورة الصافات / ١٠٢ - ١٠٧

(٢) روح المعاني (٢٣ / ١٣١)

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب العمل الذي يبتغي به وجه الله ، رقم (٦٤٢٤) .

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب صفة القيامة ، باب أحاديث عائشة وأنس ... رقم (٢٤٧٢) ، وقال : حديث حسن صحيح . وأحمد في المسند (٣ / ٢٨٦) .

(٢) سنن الترمذي صـ ٥٦٣

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وعن عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، فوضع رداءً في عنقه فخنقه بها خنقاً شديداً ، فجاءه أبو بكر حتى دفعه عنه صلى الله عليه وسلم فقال : ((أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم))[1] .

وعن خباب رضي الله عنه قال : ((أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردته في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين عنتا وشدة ، فقلت : ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : **((لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط من الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلا الله)) زادبيان ((والذئب على غنمه))** [2] .

فهذه الأحاديث وغيرها تصور مدى ما أصاب المسلمين في الصدر الأول من بلاء عظيم ، وهو ما نستشفه من أسلوب الطلب الذي توجه به خباب إلى الرسول ﷺ: ((ألا تدعو الله لنا)) .

وليس هذا النوع من البلاء- أي التعذيب والايذاء – مما اختصت به هذه الأمة ، لا ، بل وقع كذلك للأمم السابقة حتى يصدها أهل الباطل عن دين الله .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : **((كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبيا من الأنبياء صلوات**

---

(٣) سورة غافر / ٢٨ ، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، رقم (٣٦٧٨) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب مناقب الأنصار ، باب ما لقى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الأذى ، رقم (٣٨٥٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الله وسلامه عليه ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)) [١]

٣- الابتلاء بفقد النعمة ، كأن يبتلى الإنسان بفقد جزء من جسمه كذهاب بصره أو سمعه أو رجله أو يده ، أو أن يبتلى بمرض عضال أو فتاك .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت النبي الله ﷺ يقول : **((إن الله تعالى قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة))** [٢] يريد عينية .

وعن عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : هذه المرأة السوداء ، أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت : إني أصرع ، وإني أتكشف ، فادع الله لي ، قال : **((إن شئت صبرت ولك الجنة ،وإن شئت دعوت الله أن يعافيك ، فقالت : أصبر ، فقالت : إني أتكشف ، فادع الله لي أن لا أتكشف فدعا لها** [٣] **.**

ثانياً : صور الابتلاء بالمنحة :

١- الابتلاء بالملك والسلطان وحب الرياسة والجاه ، وهذا نبي الله سليمان عليه السلام ، آتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، يقول حين جاءه عرش بلقيس واستقر عنده : **((هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم))**[٤] **.**

---

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) رقم (٣٤٧٧) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب غزوة أحد ، رقم (٤٦٤٣) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المرض ، باب فضل من ذهب بصره ، رقم (٥٦٥٣) .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المرض ، باب فضل من يصرع من الريح ، رقم (٥٦٥٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك ... رقم (٦٥٧١) .
(٣) سورة النمل / ٤٠

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لقد استشعر نبي الله سليمان عليه السلام أن النعمة – على هذا النحو- ابتلاء ضخم مخيف يتطلب شكر المنعم والشعور بفضله وإحسانه، ومن شكر ففائدة الشكر راجعة إليه لأنه قيد للموجود من النعم ، وصيد للمفقود منها ، ومن جحد ولم يشكر فإن الله غني عن العباد وعبادتهم ، كريم بالإنعام عليهم وإن لم يعبدوه .

ويقول ﷺ عن هذا اللون من الابتلاء: **((إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعم المرضعة ، وبئست الفاطمة))** [١] .

وإنما استحقت الإمارة هذا النعت : لما فيها من حصول الجاه ، ونفوذ الكلمة ، وتحصيل اللذات ، لكنها بئست الفاطمة عند الانفصال عنها لموت أو عزل ، فضلا عما يترتب عليها من التبعات في الآخرة [٢] .

٢- الابتلاء بالغنى وكثرة العرض ، كقارون الذي بسط الله له في الزرق ، وآتاه من الكنوز ما لا يتخيله إنسان ، قال تعالى : ((إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي ....)) [٣] .

وكهؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله بتمام العافية بعد المرض، وبالغنى بعد شدة الفقر وألم الحرمان.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأحكام ، باب ما يكره من الحرص على الإمارة ، رقم (٧١٤٨) .
(٢) نيل الأوطار للشوكاني (٨ / ٢٩١)
(١) سورة القصص / ٧٦ - ٧٨

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

روى البخاري ومسلم بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **((إن ثلاثة في بني إسرائيل، أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص، فقال: أي شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، قد قذرني الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه ، فأعطى لونا حسنا وجلداً حسناً ، فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال: الإبل أو قال البقر – هو شك في ذلك إن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر – فأعطى ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها.**

وأتى الأقرع فقال: أي شئ أحب إليك ؟ قال: شعر حسن ويذهب عنى هذا قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب وأعطى شعراً حسنا ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال البقر ، قال : فأعطاه بقرة حاملاً ، وقال : يبارك لك فيها .

وأتى الأعمى فقال : أي شئ أحب إليك ؟ قال : يرد الله إلّي بصري فأبصر به الناس ، قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطاه شاة والداً ، فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من إبل ، ولهذا وادٍ من بقر ، ولهذا وادٍ من الغنم .

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري ، فقال له : إن الحقوق كثيرة ، فقال له : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى في صورته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله بصري ، وفقيراً فقد أغناني ، فخذ ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشئ أخذته لله ، فقال : أمسك مالك ، إنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك)) (١)

من أجل ذلك ، قال رسول الله ﷺ: **((فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم))** (٢) .

٣- الابتلاء بزينة الدنيا وزهرة الحياة ، قال تعالى : ((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب))(٣)

وقال ﷺ : **((إني مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها))** (٤).

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل ، رقم (٣٤٦٤) ، وصحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب ((الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر)) رقم (٧٤٣١)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب ما يحذر من زهرة الحياة الدنيا والتنافس فيها ، رقم (٦٤٢٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الزهد ، باب ((الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر)) رقم (٧٤٢٥) .

(٢) سورة آل عمران / ١٤ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة على اليتامى ، رقم (١٤٦٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا وما يبسط منها ، رقم (٢٤٢٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هذه الصور التي ذكرناها لكلا النوعين تؤكد أن الابتلاء كما يكون بالشر يكون بالخير ، لكن قد يخصه العرف بالمصائب كالأمراض والشدائد وكل ما يثقل على النفس ويؤلمها ، كالفقر والذل وأذية الخلق ، وهذا المعنى هو المقصود في المثل الذي نتناوله بالشرح .

- الفرق بين المظهرين :

الابتلاء بالخير أشد وطأة من الابتلاء بالشر ، وإن خيل للناس أنه دونه ، فإن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير ، وذلك أن القيام بحقوق الصبر مع الابتلاء بالشر أيسر من القيام بحقوق الشكر مع الابتلاء بالخير ، ولهذا التعليل تكون المنحة أشد من الامتحان .

ويؤكد الإمام الغزالي على حاجة الإنسان إلى الصبر عندما يبتلى بما تهواه نفسه من الصحة والسلامة والمال والجاه وجميع الملاذ ، فيقول : ((ما أحوج العبد على الصبر على هذه الأمور ، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان)) [١] ، كما قال تعالى : ((إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى))[٢] .

وقد أدرك صحابة رسول الله ﷺ الفرق في الموقف من البلاءين ، قال عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه : ((ابتلينا مع

---

(١) إحياء علوم الدين (٤ / ٦٨) .

(٢) سورة العلق / ٦ ، ٧

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رسول الله ﷺ بالضراء فصبرنا ، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر)) [١] .

نعم إن الابتلاء بالشدة قد يمنح الإنسان العزم ، ويستحثه على الصبر ، ويجند قواه للمقاومة ، فيقدر على الصمود وتحمل الشدة ، أما الرخاء فينيم الأعصاب ، ويفقد العقل قدرته على اليقظة والتحكم ، والنفس قدرتها على المقاومة ، لذلك يجتاز كثير من الناس مرحلة الشدة بنجاح حتى إذا ابتلوا بالرخاء سقطوا فيه إلا من عصم الله تعالى من أنبيائه ، وأعان من أوليائه الذين لا تفوتهم خيرية البلاء في حالي الشدة والرخاء ، ممن شملهم وصف رسول الله ﷺ : ((عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)) [٢].

ثالثا : أقسام الناس في الابتلاء

قسم بعض العلماء الناس من حيث ما يقع لهم من الابتلاءات إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم من الناس يصيبه الابتلاء من باب العقوبة والطرد

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب صفة القيامة ، باب أحاديث ابتلينا بالضراء .... رقم (٢٤٦٤) ، وقال : حديث حسن .

(٢) الحديث رواه مسلم ، وسبق تخرجه ، وانظر : في ظلال القرآن (٦ / ٣٧٣٤) ، وسائل دفع الغربة ص٢٢٠ وما بعدها .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٢- قسم من الناس يصيبه الابتلاء من باب التأديب والتنبيه

٣- قسم من الناس يصيبه الابتلاء من باب زيادة الدرجة ورفعة المنزلة [١] .

١- فأما الذي هو من باب العقوبة والطرد فهو بالنسبة لمن أساء الأدب، فيعاقبه الله سبحانه وتعالى ، فيجهل ويسخط ويقنط وينكر ، فيزداد من الله طرداً وبعداً .

ومن هذا القسم ما قصه الله من خبر فرعون وآله ، فقد كذبوا بما جاء به موسى عليه السلام ، ولم تزدهم الآيات إلا عتوا وبغيا ، فنزلت عليهم المصائب تأديباً وإنذارا لعلهم يرجعون إلى صوابهم .

يقول الله تعالى : ((ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون))[٢] ، ويفصل في آية أخرى تلك المصائب التي حلت بهم فيقول : ((فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع آيات مفصلات فاسكتبروا وكانوا قوما مجرمين)) [٣] .

لقد نزلت بهم المصائب ليتذكروا ويذعنوا ويؤمنوا ، لكنهم استكبروا ، فكان المحق والاستئصال والطرد من رحمة الله سبحانه وتعالى .

وما حدث لآل فرعون حدث لغيرهم من قبلهم ومن بعدهم ، إذ هو قانون من قوانين الكون ، فما إن ينحرف قوم عن طريق الله حتى تصب عليهم المصائب ، إنذاراً بالانحراف ، وتذكيراً بالعودة إلى الله ، فمن أراد الله به الخير انتفع ورجع ، ومن تبلد حسه وتغلبت عليه شهواته فإلى النار وبئس القرار .

---

(١) أنظر : إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة ص ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) سورة الأعراف / ١٣٠
١- سورة الأعراف / ١٣٣

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يقول الله تعالى مبيّنا هذا القانون : ((ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)) [1] .

يقول الدكتور عبد المجيد محمود : ((وهذا قانون عظيم ينبغي التنبيه إليه والأخذ به ، فعندما تحل المصائب بالناس ، يجب عليهم أن يعيدوا النظر في أعمالهم ، وأن يصلحوا من شأنهم ، وألا يلوموا إلا أنفسهم ، ففي ذلك أخذ بأسباب النجاة .

أما إذا نسوا ما ذكروا به واستمروا في غيهم ، فأمامهم العقاب الذي لا أمل في رده ، ولا قدرة على دفعه ، وهو أخوف ما أخافه على أمم الإسلام في هذه الأيام ، التي نبذت دينها ، ورضيت بمنهاج عدوها ، فانهالت عليها المصائب تنبيها وتذكيراً وإنذاراً ، وهي مستمرة في غفلتها ، سادرة في ضلالها ، لا تنتفع بإنذار ، ولا تتذكر بتنبيه [2] .

((ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون . ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون)) [3]

٢- وأما القسم الذي هو من باب التأديب فهو للذي يقصر في أوامر الله ويخالف شرع مولاه ، فيؤدبه الحق تبارك وتعالى ، فيعرفه فيها ، ويتنبه لسوء أدبه وينهض من غفلته ، فهي في حقه نعمة في مظهر النقمة .

٢- سورة الأنعام / ٤٢-٤٥

١- نظرات فقهيه وتربوية في أمثال الحديث صـ٢٤٩

٢- سورة المؤمنون / ٧٥ ، ٧٦

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومن هذا القسم ما حدث للمؤمنين يوم أحد وحنين حين قصروا في الطاعة وخالفوا الأمر ، وركنوا إلى كثرتهم وقوتهم ، فأصابتهم الهزيمة تمحيصاً وتأديباً : يقول الله تعالى مبينا ذلك : ((وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين)) [١] ويذكر الحق سبب ما حدث لهم فيقول : ((حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم)) [٢] . ثم يبين عز وجل الحكمة فيما حدث فيقول : ((وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)) [٣] .

ومن هذا القبيل ما يصيب الفرد المؤمن من أنواع البلاء ، فيدرك نعمة الله فيها ، فتكفر عنه خطاياه ، وتسقط عنه أوزاره ، كما تسقط الأوراق عن الشجرة في الخريف ، ثم يثيبه الله بقدر معرفته وشكره .

إن البلاء اختبار من الله تبارك وتعالى ومعيار للناس ، وبه تعرف الفضة والذهب من النحاس ، فكثير من المدعين يظهرون على ألسنتهم المعرفة واليقين ، فإذا وردت عليهم عواصف رياح الأقدار ألقتهم في مهاوي القنط والإنكار ، وقد قالوا : إذا أراد الله أن يطوى مسافة البعد بينه وبين عبده ، سلط عليه البلاء ، وما زال العارفون يفرحون بهذه النوازل [٤] .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ في بيان النعمة في هذه النقمة: **((من يرد الله به خيراً يصب منه))**[٥] ، أي يوجه إليه المصائب ويبتليه بها ، ليكفر من خطاياه وليثيبه عليها .

---

١ - سورة آل عمران / ١٥٢
٢ - سورة آل عمران / ١٤٠
٣ - سورة آل عمران / ١٤١
١- أنظر: أيقاظ الهمم ص٢٨
٢- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب كفارة المرض، رقم (٥٦٤٥).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ويقول ﷺ ، في بيان فائدة النوازل التي تنزل بالمؤمن : **((ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه))** [1] .

لذلك يقول الحسن : ((لا تكرهوا الملمات الواقعة ، فلرب أمرٍ تكرهه فيه نجاتك ، ولرب أمر تحبه فيه عطبك)) .

وأنشد أبو سعيد الضرير :

رب أمـــــر تتقيــه * جر أمراً ترتضيــه**

خفى المحبوب منـه * وبدا المكروه فيــه**[2]

إن المؤمن يرفع الله من درجته ويكفر من خطاياه ، فيعجل من عقوبته ، ولذا يصيبه البلاء بعد البلاء ، حتى لا يطمئن إلى الدنيا ولا يركن إليها ، ويزداد شوقه إلى دار النعيم فيعمل لها .

فينبغي على المؤمن أن يعلم نعمة الله عليه في الضراء ، كما عرفها في السراء ، فإنه لم يبتله إلا ليذكره إن نسى ، أو ليكفر عنه ذنبا – وابن آدم كله أخطاء ، ولأن تدركه العقوبة في الدنيا فتطهره خير من أن تدخر له في الآخرة – أو ليرفع من درجته ، فإذا أدرك الإنسان حقيقة البلاء انقلبت المحنة في حقه منحة ، واستحالت البلية عطية وصار المكروه محبوباً ، ((فإن لله على العبد عبودية في الضراء ، كما له عبودية في السراء ، وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون ، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ، ففيه تتفاوت مراتب العباد ، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى)) [3] .

٣- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب المرضى ، باب كفارة المرض ، رقم (٥٦٤٥) .
٤- تفسير القرطبي ٣/ ٣٩
١- الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص ١١ ، ١٢ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولذلك يقول رسول الله ﷺ عن المؤمن: **((عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))** [1]

٣- وأما الذي هو من باب زيادة الدرجة ورفعة المنزلة فهو للذين تنزل بهم هذه التعرفات الجلالية – المصائب – من غير سبب فيتأدب معها ويترقى بها إلى مقام الرسوخ والتمكين .

ومن هذا القسم المصطفون الأخيار والخواص من الناس الذين يريد الله أن يعلى من شأنهم ، وأن يرفع من أقدارهم ، فيكون الامتحان مناسباً لدرجتهم .

إن الدرجات العلمية في حياتنا مختلفة المراتب ، تترقى من الأدنى إلى الأعلى ، ولا يعقل أن يتساوى الامتحان بين أعلى الدرجات وأدناها ، ثم أعلى الدرجات قد يكون على مستوى الدولة أو على مستوى عدد من الدول ، وهذا يضاعف من صعوبة الامتحان وشروط المتقدم إلى هذه الدرجة .

ومن هنا جاء القانون الذي عبر عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله وقد سئل : **((أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة))** [2] .

٢- الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير ، رقم (٧٥٠٠) .

١ - الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، رقم (٢٣٩٨) وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه في سننه ، كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، رقم (٤٠٢٣) ، والدارمي في سننه ، كتاب الرقائق ، باب في أشد الناس بلاء (٢/ ٤١٢) ، وأحمد في مسنده ١/ ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، والحاكم في مستدركه ١ / ٤٠ ، ٤١ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وهذا البلاء إعداد لهم وتربية تتناسب مع رسالتهم ، ثم يواجهون بألوان من البلاء على يد خصومهم وهم في كل ذلك المثل الأعلى والقدوة الكاملة ، فيكون لهم الأثر الخالد والذكر الحميد ، والتأثير المطلوب في حياة الناس .

وليس البلاء الذي يصيب أصحاب هذه الدرجات مقصوراً على ما يلقونه من محن في دعوتهم إلى الله – بل ما يصيبهم في خاصة أنفسهم من أمراض وفقد أعزة يكون أكثر من غيرهم ، ولهذا أصيب ﷺ في أولاده وفي خاصة أهله ، وكان يصاب بالحمى فتثقل عليه ، ودخل عليه عبدالله بن مسعود وهو يوعك – يرتعد من الحمى – فقال : يا رسول الله ، إنك توعك وعكا شديداً ، قال : **((أجل كما يوعك رجلان منكم))** [1].

****

رابعاً : المؤمن مبتلى

١- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المرضى ، باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، رقم (٥٦٤٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ذكرنا فيما سبق أن الابتلاء سنة عامة تشمل كل الناس على اختلاف عقائدهم وتصوراتهم ، بيد أن للمؤمنين مع الابتلاء موقف خاص ، فحظهم منه كبير ونصيبهم منه عظيم ، وفي الحديث موضع الشرح إشارة إلى ذلك ، كما أن القرآن الكريم يؤكد تلك الحقيقة في كثير من آياته .

١- يقول الله تعالى : ((ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))[١] .

إن الإيمان بالله ليس مجرد كلمة ينطق بها اللسان ، وليس شعاراً أو راية ترفع ، وإنما هو عقيدة تسكن القلب ، وعمل تقوم به الجوارح ، وجهاد شاق متصل ، فلا يكفى أن يقول الناس آمنا وهم لا يفتنون .

والمؤمنون الذين لقيتهم هذه الآيات في أول الدعوة الإسلامية – كانوا في وجه محنة قاسية ، حيث انخلعوا عن أهليهم ، وانعزلوا عن مجتمعهم ، وكانوا قلة قليلة في مواجهة عاصفة عاتية ، تسوق إليهم البلاء بغير حساب ، حتى هاجروا من ديارهم ، وخرجوا من أموالهم ... فلما اجتمع لهم في موطنهم الجديد شئ من القوة ، وأذن الله لهم في القتال ، كان أول لقاء لهم مع آبائهم وأبنائهم وإخوتهم ، فعملت سيوفهم في رقاب المشركين من أهليهم وذوى رحمهم ، فما نكل أحد منهم عن أن يضرب بسيفه من كان – قبل الإسلام – يفديه بنفسه ، ويلقى الموت دونه ...

وقد حدث التاريخ أن أبا بكر لقي ابنه في معركة بدر ، وقد عرفه ابنه ولم يعرفه ... فلما كان بعد زمن ، ودخل ابنه في الإسلام ، قال لأبيه : لقد عرضت لي يوم بدر ، فأعرضت عنك

١- سورة العنكبوت / ١-٣

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

، فقال له أبو بكر ، لو عرضت لي يومئذ ، وأمكنني الله منك ، لما رددت سيفي عنك)) [1] .

إن هذا الجهاد ، وهذا الصراع القائم بين الحق والباطل ، وبين المؤمنين والكافرين ، هو ضريبة الحياة ، وهو الثمن الذي يقدمه المؤمنون المجاهدون في سبيل حياة أفضل .... فهم أصحاب الحياة بحق ، وغيرهم دخيل عليها ، لا يستحق أن يأخذ مكاناً كريما فيها ... فجهاد المؤمنين ضد الكافرين والمنافقين ، هو في الواقع جهاد في سبيل وجودهم ، وجوداً كريماً في هذه الحياة الدنيا ، وإلا فالموت في مجال الصراع خير لهم ، حيث ينقلون إلى دار خير من دارهم ، وإلى حياة أفضل من حياتهم .

إن النبتة لا ترى النور ، ولا تصافح النسيم ، حتى تدفع برأسها الواهي الضعيف هذا التراب الذي قام فوقها ، وحجب النور عنها! .

وفي الإنسان – كل إنسان – أشواق إلى عالم الحق والنور ، وتقوم بينه وبين هذا العالم سدود من الباطل والضلال ، وإنه لكي يصافح معالم الحق والنور ، ينبغي أن يزيل هذه السدود ، وأن يحطمها بكل ما أوتي من قوة ، وألا يتحول عن موقفه منها حتى يبلغ غايته ، أو يموت دونها .

إن الإيمان هكذا غالي الثمن ، باهظ التكاليف ، وإن طريقه وعر المسالك ، جم العقبات ! إنه الطريق إلى الجنة ، وإن طريق الجنة محفوف بالمكارة ، وإن هذا البلاء الذي يلقاه المؤمن على طريق إيمانه ، هو ابتلاء له ، وتمحيص لما عنده من صبر ومصابرة ، وهل يصفى الذهب من الغثاء الذي علق به إلا إذا صهر بالنار ؟ ((ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم)) [2] .

١- انظر : السيرة الحلبية ٢/ ٤١٤ . ط : مكتبة الإيمان بالمنصورة .
١- سورة محمد / ٣١ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال تعالى :((ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب))(١) .

وهل انكشف وجه النفاق ، وعرف المنافقون إلا في بوتقة الابتلاء ، وفي مقام التضحية والبذل ؟

إن الناس جميعاً على سواء في حال الأمن والعافية ، فإذا كانت المحن والشدائد ، فهم أنماط وأشكال ، وهم معادن مختلفة بين غث وسمين ! .

والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار ، والنفي .... أي ليس الأمر على ما يظن الناس وما يقدرون ، من أنهم إذا قالوا آمنا كانوا مؤمنين .. كلا ، إن ذلك لا يكون حتى يفتنوا ، وعندئذ ينكشف ما عندهم من إيمان [٢].

٢- ويقول ربنا مبينا ما ينتظر المؤمنين من ألوان البلاء ، مؤكداً ذلك بلام القسم ونون التوكيد : ((ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالو إنا لله وإنا إليه راجعون)) (٣) .

فالبلاء هنا بلاء عام ، يصيب القلوب بالخوف ، والبطون بالجوع ، والأموال بالنقص ، والأنفس بالموت ، والثمرات بالآفات ، ومن لطف الله ورحمته هنا أنه جعل البلاء : ((بشئ من الخوف والجوع ونقص .....)) الخ .

وتنكير **[شئ]** هنا – كما يدل عليه السياق – للتقليل والتحقير ، لأن ما هو أكثر وأكبر لا يطيقونه ، فمسهم بشئ قليل من البلاء ، تخفيفاً عنهم ، ورحمة بهم ، وتقديراً لضعفهم ، يقول صاحب تفسير المنار مبيناً الحكمة من وراء تلك الابتلاءات التي

٢- سورة آل عمران / ١٧٩

١- انظر : التفسير القرآني للقرآن ٤٠٠/٥- ٤٠٥

٢ - سورة البقرة / ١٥٥- ١٥٦ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تصيب المؤمن : ((وهذا البلاء وتلك الآلام لابد منها ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة ، كي تعز على نفوسهم بقدر ما أدوا في سبيلها من تكاليف ، إذ العقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم تركها عند الصدمة الأولى .

فالمؤمنون يعلمهم ربهم أن مجرد الانتساب إلى الإيمان لا يقتضى سعة الرزق وقوة السلطان ، وانتفاء المخاوف والأحزان ، بل يجرى ذلك بسنن الله تعالى في الخلق ، كما أن من سنن الخلق وقوع المصائب بأسبابها ، وإنما المؤمن الموفق من يستفيد من مجارى الأقدار ، إذ يتربى ويتأدب بمقاومة الشدائد والأخطار ، ومن لم تعلمه الحوادث ، وتهذبه الكوارث فهو جاهل بهدى الدين ، متبع غير سبيل المؤمنين ، غير معتبر بقوله تعالى : ((ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين))

فإنه تعالى ينبهنا بهذا إلى أن هذه العقيدة هي التي تكتسب بها ملكة الصبر التي يقرن بها الظفر ، ويكون صاحبها أهلا لأن يبشر باحتمال البلاء والاستفادة بحسن العاقبة في الأمور كلها)) [١] .

٣- ويؤكد ربنا عز وجل على ضرورة البلاء للمؤمنين خاصة ، فيقول عز من قائل : ((لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور))[٢] .

ويلفت الدكتور القرضاوي الأذهان إلى عدة ملاحظات في الآية الكريمة فيقول : ((وهنا عدة ملاحظات في الآية الكريمة جديرة بالانتباه والتسجيل :

---

١ - تفسير المنار (٢/ ٣٢) .
٢- سورة آل عمران / ١٨٦ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الأولى : أن الله تعالى وصف الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة [أذى كثيراً] وهذا يدل على أن حربا كلامية ستعلن على أهل الإيمان ، لتشويه دعوتهم ، وتلويث سمعتهم ، والتشكيك في سيرتهم وسريرتهم ، وهي حرب أسلحتها الدس والتحريف والافتراء ، فلا بد أن يوطن المؤمنون أنفسهم على احتمال مكارهها ، ويصبروا على تجرع غصصها ، حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل .

الثانية : أن الآية قرنت هنا بين الصبر والتقوى ، فلم تكتف من المؤمنين بالصبر وحده حتى يجمعوا على تقوى الله تعالى ، ومعنى التقوى هنا : التعفف عن مقابلة الخصوم بمثل أسلحتهم الدنيئة ، فلا يواجه الدس بالدس ، ولا الافتراء بالافتراء ، لأن المؤمنين تحكمهم قيمهم الأخلاقية في السلم والحرب والرخاء والشدة .

الثالثة : أن الآية قرنت كذلك بين الذين أوتوا الكتاب – من اليهود والنصارى – وبين الذين اشركوا من الوثنين العرب ومن على شاكلتهم ، هذا مع اختلاف الفريقين في الدين والوجهة ، وفي هذا إشارة إلى أن عداوتهم لأهل الإسلام وحدت بينهم على ما بينهم من اختلاف ، وهذا ما أثبته التاريخ قديماً ، وأثبته الواقع حديثاً ، أثبته التاريخ حينما وجدنا اليهود – وهم أهل الكتاب – ينضمون إلى جهة المشركين عباد الأوثان من قريش وغطفان وغيرهما في حرب النبي صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك من وقائع التاريخ .

وأثبته الواقع المعاصر ، حيث وجدنا اليهودية العالمية ، والشيوعية الدولية والصليبية الغربية والشرقية تختلف فيما بينها أشد الاختلاف ، ثم تتناسى هذا كله حين يكون العدو هو الإسلام ، فتجتمع كلمتها على حرب أمة الإسلام ودعوة الإسلام ، وهذا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مصداق ما جاء في القرآن : ((والذين كفروا بعضهم أولياء بعض)) [١] ، ((وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض)) [٢] .

ومن هنا قرر فقهاؤنا :[أن الكفر كله ملة واحدة][٣].

ولله در من قال :

إن العـــداوة لا مرئ متميـــز * جمعت عليه صداقة الأعداء**

فالشرق ضد الغرب إلا أنهم * لعداوة الإسلام جد إخـــاء**

٤- ويقول الله تعالى مؤكداً سنة الابتلاء الخاصة بالمؤمنين : ((أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا أن نصر الله قريب))[٤] .

قال القرطبي : ((قال قتادة والسدى وأكثر المفسرين : نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد ، وكانوا كما قال – تعالى - :[إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر)) [٥] .

وقيل نزلت في حرب أحد ، ونظيرها – في آل عمران : ((أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ...))[٦] .

وقالت فرقة : نزلت الآية تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين ، وآثروا رضا الله ورسوله ،

١- سورة الأنفال / ٧٣

٢- سورة الجاثية / ١٩ .

٣- الصبر القرآن للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٧، ١٨ .

٤- سورة البقرة / ٢١٤ .

٥- سورة الأحزاب /١٠

١- الآية /١٤٢

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ، وأسر قوم من الأغنياء النفاق فأنزل الله ذلك تطييبا لقلوبهم)) [1] .

وما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة لا يمنع عمومها ، وأنها تدعو المؤمنين في كل زمان ومكان إلى التذرع بالصبر والثبات تأسيا بمن سبقهم من المتقين حتى يفوزوا برضوان الله تعالى ونصره .

والمتأمل في الآية الكريمة يراها قد بينت للمؤمنين أن طريق الجنة محفوف بالمكارة ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ((حفت الجنة بالمكارة وحفت النار بالشهوات))[2] ، وأنهم لكي يصلوا إلى الجنة عليهم أن يتأسوا بالسابقين في جهادهم وصبرهم على الأذى ، فقد اقتضت سنة الله أن يجعل هذه الحياة نزالا موصولا بين الأخيار والأشرار ، ونزاعاً مستمراً بين الأطهار والفجار ، وكثيراً ما يضيق البغاة على المؤمنين ، وينزلون بهم ما ينزلون من صنوف الاضطهاد ، إلا أن الله تعالى قد تكفل بأن يجعل العاقبة للمتقين))[3] .

وهكذا يتضح لنا من خلال تلك الآيات وغيرها مما لم نذكره ، وكذلك من الأحاديث النبوية خاصة تلك الأحاديث التي هي موضع الشرح ، والتي أوردناها أثناء الشرح أن الابتلاء ضرورة للمؤمن لتربيته ، وصقل معدنه ، وتمحيص ما في قلبه ، فهو ينضج بالمحن كما ينضج الطعام بالنار .

قال في البحر : (المؤمن لا يخلو من بلاء يصيبه فهو يميله تارة كذا وتارة كذا ، لأنه لا يطيق البلاء ولا يفارقه ، فمن ثم يميل يمنة ويسرة ، والمنافق على حالة واحدة من دوام الصحة في نفسه وأهله .

٢- تفسير القرطبي ٣/ ٣٣ ، ٣٤

٣- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب حجبت النار بالشهوات ، رقم (٦٤٨٧) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، أول الكتاب ، رقم (٧١٣٠) .

١- انظر : التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي ١ / ٤٦٥ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ويفعل الله ذلك بالمؤمن ليصرفه إليه في كل حال ، فكلما سكنت نفسه إلى شئ أمالها عنه ليدعوه بلسانه وجنانه لأنه يحب صوته .

فاختلاف الأحوال تميل بالمؤمن إلى الله ، والمنافق وإن اختلفت عليه الأحوال لا يرده ذلك إلى ربه ، لأنه أعماه وختم على قلبه ، فنفسه كالخشب المسندة لا تميل لشئ ، وقلبه كالحجر بل أشد ، ليس فيه رطوبة الإيمان ، كالأرز لا تهتز حتى تحصد بمنجل الموت .

ومقصود الحديث – يقصد حديث الباب الذي ندرسه – أن يحذر المؤمن دوام السلامة خشية الاستدراج ، فيشتغل بالشكر ، ويستبشر بالأمراض والرزايا))[1] .

خامساً : الحكمة من ابتلاء المؤمنين

- إنما كانت المحن ضرورة لأهل الإيمان لجملة معان وحكم منها :

١- إعداد المؤمنين لحمل أمانة إقرار المنهج الرباني في الأرض بكل المعاني والقيم التي يحملها ذلك المنهج ، وحمل أمانة إقرار المنهج الرباني لا يصلح له كل الناس ، إنما يحتاج لقوم مختارين ، يعدون له إعداداً خاصاً ليحسنوا القيام به .

أرأيت لو أن قائداً أراد إعداد جنوده للفوز في معركة صعبة ضارية ، أيكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهون عليهم الإعداد ، أم تكون الرحمة الحقيقية بهم أن يشدد عليهم في التدريب على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التي يعدهم من أجلها .

١- فيض القدير (٥ / ٥١٢)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد علم الله أن الابتلاء هو الوسيلة للتمحيص والإعداد كذلك .

إن القوم المختارين لحمل الأمانة لن يحسنوا حملها حتى تتصل قلوبهم بالله ، وتتعلق به وحده في السراء والضراء وتتجرد له ، فعندئذ يستطيعون أن ينفذوا هذا التوجيه الرباني :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) [1].

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)[2]

والابتلاء هو الإعداد الرباني لذلك كله ، حيث يوضع المؤمن في الوضع الذي يحيط به الكفار ، غالبين منتفشين بباطلهم ، ضاغطين بكل قوتهم ، ويلتفت حوله – وهو صاحب الحق – فلا يجد قوة واحدة في الأرض تنقذه من بين براثنهم ، فيلجأ إلى الله وحده ، ويتطلع إليه وحده ، ويتعلق قلبه به وحده ، ويعلم أن لن ينقذه منهم إلا هو وحده ، حين يقرر سبحانه بمشيئته وحده ، وعندئذ يتم له التمحيص ، ويتجرد لله ، فيحمل الأمانة على استواء .

أمر آخر يتم في أثناء الابتلاء له علاقة وثيقة بالإعداد لحمل الأمانة ... ففي الحياة الوادعة التي يحياها الإنسان في معتاد حياته تبدو كثير من الأمور كأنها ضرورات لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها ، فيشغل نفسه بتحصيلها ، وينفق وقته في ممارستها ، ويتوزع جهده بينها وبين القيم التي قد يتجه إليها.

١- سورة النساء /١٣٥ .
٢ - سورة المائدة / ٨

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفي المحنة يكتشف الإنسان أن كثيراً مما ظنه ضرورات : من الفراش الوثير والطعام الوفير ، وراحة الجسد ، وراحة البال ، وهدوء الأعصاب ... الخ، قد انتزع منه انتزاعاً ومع ذلك يعيش ! بل يجد نفسه يعيش من أجل قيم أعلى ، ويمارس مشاعر أشف وأصفى مما كان يمارس من قبل ، فيتعلم في درس عملي – أن الحياة من أجل القيم العليا أثمن وأعلى بكثير من المتاع الزائل ... فإذا انتهت المحنة ، وصار إلى التمكين في الأرض ، لم يشغله المتاع الزائل عن القيم العليا والجهاد من أجلها ونذر الجهد لها ، ويتذوق قوله تعالى : ((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبئكم بخير من ذالكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) [1].

٢- تطهير الصف المؤمن من أدعياء الإيمان من المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، فإبان العافية والسراء يختلط فيها الحابل بالنابل ، والخبيث بالطيب ، وإنما يقع التمييز بين الأصيل والدخيل بالمحن والبلاء ، كما يتميز الذهب الحقيقي من الزائف بالامتحان بالنار .

وفي هذا يقول القرآن الكريم في سورة آل عمران التي نزل نحو ثمانين آية منها بعد أحد : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) [2].

١- سورة آل عمران / ١٤-١٧ ، وانظر : حول التفسير الإسلامي للتاريخ للأستاذ محمد قطب ص١١١-١١٣

١- سورة آل عمران / ١٧٩

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إن من الناس من يدخل في زمرة المؤمنين ويلبس لبوسهم ، ويتكلم بلسانهم ، فإذا أصابته فتنة أو محنة في سبيل دينه ، خارت قواه ، وانحلت عراه ، وبرئ مما كان يدعيه من قبل .

وفي هذا النموذج من البشر يقول القرآن : ((ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ، أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين)[1] .

ونحو هذا النموذج الذي يقول بلسان مقاله ما يكذبه لسان حاله ، نموذج آخر ذكره القرآن في سورة الحج : (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين) (٢).

فالمحن التي تعرض لأصحاب الدعوات هي التي تميز هذه الأصناف وتفرزهم من بين المؤمنين ، وتنفى الخبث من صفوفهم كما ينفى الكير خبث الحديد)[3].

٣- تبصير المؤمن بأن الحياة الدنيا دار أغيار لا تدوم على حال ، وإنما هي قلب فيوم لك ويوم عليك : (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس)[4] .

لقد خلق الله الحياة الدنيا على طبيعة اختلطت فيها اللذائذ بالآلام ، والمحاب بالمكاره ، فهيهات أن ترى فيها لذة لا يشوبها ألم ، أو صحة لا يكدرها سقم ، أو سروراً لا ينغصه حزن ، أو راحة لا يخالطها تعب ن أو اجتماعاً لا يعقبه افتراق ، أو أمانا لا

٢- سورة العنكبوت / ١٠-١١١

١ - سورة الحج / ١١

٢- انظر : الصبر في القرآن للدكتور القرضاوي ص ١٨، ١٩ ، وزاد المعاد لابن القيم ٧٢/٢ ، ١١٦٤ . ط : المكتبة القيمة .

٣- سورة آل عمران / ١٤٠ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يلحقه خوف ، إن هذا ينافى طبيعة الحياة ، ودور الإنسان فيها ، وهذا ما أدركه الحكماء والأدباء والشعراء من قديم ، فنطقت به ألسنتهم وأقلامهم شعراً ونثراً .

قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : صف لنا الدنيا ، فقال : ماذا أصف لك من دار أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ؟! .

وما أجمل ما قال في ذلك الشاعر العربي يصف الدنيا :

جُبلت على كدر وأنت تريدها * صفواً من الآلام والأكدار**

ومكلـــــف الأيام ضد طباعها * متطلب في الماء جذوه نـــــار**

يقول العلامة ابن القيم في [زاد المعاد] في بيان علاج حر المصيبة وحزنها : ((أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب ، وليعلم أنه في كل واد بنوسعد ، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة ، ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة ؟ وإنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى : إما بفوات محبوب ، أو حصول مكروه ، وإن سرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل ، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً ، وإن سرت يوماً أساءت دهراً ، وإن متعت قليلاً منعت طويلا ، وما ملأت داراً حبرة ، إلا ملأتها عبرة ، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور)) [1] .

٤- تطهير نفوس المؤمنين من الشوائب التي تكتسبها من أحداث الحياة ونوازع القلب ونزغاته ، وهي أمور لا معدي للبشر عنها ، لأنها جزء لازم من طبائعهم ، مهما هذبها الإيمان – فالإنسان لا يخلو من شح ومن طمع ومن حرص ، ومن رغبته في إيثار السلامة والدعة والراحة ولو على حساب ما يجب من الالتزام بمبادئ الدين ومقاصده المطلوبة ، ومن

---

١ - زاد المعاد ٣/ ٢٠٣

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المعروف المجرب أن شواغل العيش ومطالبه المادية تأخذ الإنسان في تيارها الدارج المتواصل ، فتورثه نوعاً من قسوة القلب لما يعايشه من تناحر الناس على أسباب الرزق وجمع المال بكل طريق ، ولما يبثه الشيطان في نفسه من خوف الفقر وآثاره : ((الشيطان يعدكم الفقر))[1] ، وفي هذا الخضم الذي يجد الإنسان فيه نفسه ، فإن شيئاً من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات كفيل بأن ينتزعه إن كان مؤمناً حقا – من هذه الدوامة المضطربة بالرغبات والأهواء والصراع ، بحيث ينيب إلى الله ويرجع ذاكراً لحقائق الحياة والكون والمصير .

يقول العلامة ابن القيم : (النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانا وركونا إلى العاجلة ، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة ، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته ، قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه ، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقى العليل الدواء الكريه ، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه ، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه)[2] .

وقال العز بن السلام : (إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر ، فإن نمرود لو كان فقيراً سقيما ، فاقد السمع والبصر ، لما حاج إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطر الملك على ذلك ، وقد علل الله سبحانه وتعالى محاجته بإتيانه الملك ، ولو ابتلى فرعون بمثل ذلك ، لما قال : ((أنا ربكم الأعلى))[3]– وتأمل - : ((وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله))[4]، ((ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في

---

١ - سورة البقرة / ٢٦٨
١- زاد المعاد (٢/ ١٦٥)
٢- سورة النازعات / ٢٤
٣- سورة التوبة / ٧٤

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الأرض))[1] ، ((وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون))[2] .

والفقراء والضعفاء هم الأولياء وأتباع الأنبياء ، ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، نسبوا إلى الجنون والسحر والكهانة ، واستهزئ بهم ، وسخر منهم : ((فصبروا على ما كذبوا وأوذوا)) [3] .

ولم تزل الأنبياء والصالحون يتعهدون بالبلاء الوقت بالوقت : **(يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان صلبا في دينه شدد في بلائه)** [4] .

فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله عز وجل ، وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى : ((وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه))[5] ، فلأجل ذلك تقللوا في المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك ، ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى – عز وجل – والإقبال عليه [6].

٥- زيادة رصيد المؤمنين ومقامهم عند الله ، فهو سبحانه بما يصيبهم من ابتلاء يرفع درجاتهم ، ويضاعف حسناتهم ، أو على الأقل – يكفر خطاياهم – حتى يمشي أحدهم على الأرض وما عليه خطيئة ، غسلته المحن غسلا ، وطهرته الشدائد تصهيرا .

٤- سورة الشورة / ٢٧

٥ - سورة سبأ/ ٣٤

١- سورة الأنعام / ٣٤

٢- الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، رقم (٢٣٩٨) ، وقال : حسن صحيح .

٣ - سورة يونس / ١٢

٤ - انظر : محاسن التأويل (٣٣٥/٢- ٣٣٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإذا كانت الخطايا لازمة للبشر ، لأنهم ليسوا ملائكة مطهرين ، ولم تضمن العصمة من الذنوب لأحد غير الأنبياء ، فإن من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن يتعهدهم بالابتلاء بعد الابتلاء ، لتتحات عنهم الخطايا بالصبر والاحتساب كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا يبس .

وفي الحديث : **[ما يصيب المسلم من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه]** [١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **[من يرد الله به خيراً يصب منه]** [٢] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **[إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى يوم القيامة]** [٣].

وعن أنس أيضاً قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : **[إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط]** [٤] .

قال ابن القيم : [إن الله سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم ، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة ، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه

---

١ ـ الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المرضى ، باب ما جاء في كفارة المرض ، رقم (٥٦٤٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن ... رقم (٦٥٦٨)

٢ـ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المرضى ، باب ما جاء في كفارة المرض ، رقم (٥٦٤٥) .

٣ ـ أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، رقم (٢٣٩٦) وقال : حسن غريب من هذا الوجه .

٤ ـ أخرجه الترمذي في الكتاب والباب السابقين .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وامتحانه ، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها] [١].

٦- معرفة ذلة العبودية وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ((الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون)) [٢]، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده ، وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه وتقديره ، لا مفر لهم منه ، ولا محيد لهم عنه ، والعبد إذا ذل لربه وانكسر ، عز وانتصر .

يقول ابن القيم : [المؤمنون إذا امتحنهم ربهم بالغلبة ، والكسرة ، والهزيمة ، ذلوا وانكسروا وخضعوا ، فاستوجبوا منه العز والنصر ، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار ، قال تعالى : ((ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)) [٣] ، وقال : ((ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا)) [٤]، فهو سبحانه إذا أراد أن يُعز عبده ، ويجبره ، وينصره ، كسره أولاً ، ويكون جبره له ، ونصره ، على مقدار ذله وانكساره [٥]].

٧- الإخلاص لله تعالى إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه ، ولا معتمد في كشفها إلا عليه : ((وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو)) [٦]، ((فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين)) [٧]. وفي غزوة أحد حين حدث ما حدث ، أخبر سبحانه عما استنصرت به الانبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم ، أن يثبت أقدامهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، فقال : ((وما كان قولهم إلا أن قالو ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وأنصرنا على

١- زاد المعاد (٣/ ٢٢١)
٢- سورة البقرة / ١٥٦
٣- سورة آل عمران / ١٢٣
٤ - سورة التوبة / ٢٥
٥ - انظر : زاد المعاد ٢/ ١٦٥ ، محاسن التأويل ٣٢٩/٢
١- سورة الأنعام / ١٧
٢ - سورة العنكبوت /٦٥

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين)) [1] .

هذا وهناك حكم كثيرة أخرى أفاض العلماء في ذكرها ، وفيما ذكرناه غنية ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما ذكره ابن القيم في زاد المعاد عند حديثه عن الفوائد والحكم مما حدث في غزوة أحد ، وكذلك ما ذكره القاسمى في محاسنه عند تفسير قول الله تعالى : ((أولئك عليهم صلوات عليهم من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون))(٢) .

سادساً : موقف المؤمن من الابتلاء

الابتلاء قرين الإيمان ، فالمؤمن يتعرض في هذه الحياة للابتلاء لا محالة ، تلك سنة الله على مر العصور والأزمنة ، قال تعالى : ((سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً))[3] ، ولا ريب أن معرفة طبيعة السنة تقتضي أن يتعامل معها المؤمن بوعي على أنه إنسان غير محابي ولا مستثنى ، وأن يستثمر حكمها في صالحه بما يمكنه من تجاوز آثارها ن واستدرار منافعها ، في حين أن تجاهل ذلك أو الغفلة عنه يورث هزيمة النفس أمام آلام البلوى ومصاعبها ، ومن ثم فعلى المؤمن إذا استحكم القضاء ، ووقع البلاء :

أولاً : أن يسلم لأمر الله وقضائه ، فلا ييأس على ما فاته ، ولا يفرح بما جاءه ، ويوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، قال تعالى : ((ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن

---

٣ - سورة آل عمران / ١٤٧-١٤٨
٤- سورة البقرة / ١٥٧
١- سورة الأحزاب /٣٨

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور))(١) ، فما فائدة مشاعر التسخط والأسى أو الزهو والفرح وهي لا ترد قضاء ، ولا تمنع قدراً ؟ . بل تعود عليه بالحزن أو الغرور ، فتضاعف مصابه ، وتصيبه بشئ من الجزع ، وكان قادراً على أن يدفعها بالحمد ، ويبدلها ثوابا بالتسليم ، قال صلى الله عليه وسلم : (فمن رضي فله الجنة ، ومن سخط فله السخط)[٢] .

ثانياً : أن يستعين المبتلى بالله في محنته ، ويتكل عليه في مصيبته ، ويطلب عونه على بلواه ، ويستبق ثقته برحمته وقدرته على كشف ضره ، ويأمل في عوضه وجزائه ، [فعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء ، لشهود العوض .... كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها ، لما يلاحظه من لذة عاقبتها ، وظفره بها][٣]

وليحذر من أن يفقد ثقته في عون الله له في الدنيا مهما اشتد الخطب وعظم المصاب ، أو أن يقنط من رحمة الله في المحنة ، فإن فعل فما ذلك بمبدل ما به من البلاء ، قال تعالى : ((من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ))(٤) ، لا يذهب غيظه ، ولا تندفع بلواه ، بل يفقد كل نافذة مضيئة ، وكل رجاء في الفرج ، وسيستبد به الضيق ، ويثقل على صدره الكرب ، ويزداد بلاء على بلائه ، وكربا على كربه [٥].

---

٢ - سورة الحديد / ٢٢ ، ٢٣

١ - رواه الترمذي ، وسبق تخريجه .

٢ - مدارج السالكين (١٦٦/٢)

٣- سورة الحج /١٥ .

١- طريق الدعوة في ظلال القرآن لأحمد فائز ص ٢٣٠ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثالثا : أن يعلم المبتلى أن الذي ابتلاه أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه ، ولا ليعذبه به ، وإنما ليمتحن إيمانه وصبره ورضاه ، وليسمع تضرعه وابتهاله ، وليراه طريحا ببابه ، لائذا بجنابه ، مكسور القلب بين يديه ، رافعاً الشكوى إليه ، قال عبدالقادر الجيلاني : (يا بني : إن المصيبة ما جاءت لتهلكك ، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك ، يا بنى : القدر سبع ، والسبع لا يأكل الميتة)[1] .

والله تعالى يقول : ((فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون)[2] .

رابعاً : أن يتحمل المبتلى ما أصابه على أنه خير له ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يقضى لعبده المؤمن قضاء إلا خيرا له ، ساءه ذلك القضاء أو سره ، فما يقضيه الله من المنع لعبده المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع ، ونعمة وإن كانت في صورة محنة ، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية ، ولكن لجهل العبد وظلمه وقصر نظره لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل ، وتمتع به في القريب ، وكان ملائماً لطبعه ، خاليا من الأذى ، وما علم أن في ذلك شحذ قواه ، وعلو همته ، وتكفير سيئاته ، ورفع درجاته ، ومضاعفة حسناته .

خامساً : أن يدفع المبتلى مرارة الألم وشدة المصيبة في الدنيا برجاء ثواب الله في الآخرة ، قال صلى الله عليه وسلم : (ما يصيب المسلم من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) [3].

---

٢ - زاد المعاد (١٩٤/٤)
٣- سورة الأنعام /٤٢
١- رواه البخاري ، وسبق تخريجه

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وهذه امرأة أصيبت في قدمها فلم تتوجع ، بل ابتسمت واسترجعت ، فقيل لها : يصيبك هذا ولا تتوجعين ! قالت : سروري بالأجر شغلني عن ألم المصيبة .

سادساً : أن يتذرع المبتلى بالصبر ، فمهما استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها ، وترادفت الضوائق وطال ليلها ، فالصبر وحده يشع للمسلم النور العاصم من اليأس ، والهداية الواقية من القنوط ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وصف الصبر فقال : **(والصبر ضياء)** [1]، فهو يضئ طريق المؤمن مهما اشتدت ظلمته ، ويهون الأمور مهما عظمت خطوبها ، وهو قرين الظفر في جميع الأحوال ، فإن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسرا ، وأعظم ما يظفر به المبتلون الصابرون معية الله تعالى وعظيم الثواب والأجر ، قال تعالى : ((إن الله مع الصابرين))[2] ، وقال تعالى : ((إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)) [3].

سابعاً : أن يطفئ المبتلى نار مصيبته ببرد التأسي بأهل الابتلاء ، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة ؟ ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة ؟ وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى بفوت محبوب ، أو حصول مكروه ، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل ، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً ، وإن سرت يوما ساءت دهراً ، وإن متعت قليلا منعت طويلا .

لكل شئ إذا ما تم نقصـــــــان ** فلا يغر بطيب العيش إنسان

٢- جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء ، رقم (٥٣٤)

١ - سورة البقرة / ١٥٣

٢ - سورة الزمر / ١٠

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هي الأمور كما شاهدتها دول ** من سره زمن ساءته أزمـــــان

ثامنا : أن يهون المبتلى ما نزل به من بلية بتصور نزول أعظم منها ، فإن كل مصيبة هناك يوجد ما هو أكبر منها ، فقد قيل : (بعض الشر أهون من بعض) ، والمؤمن ينظر بعين بصيرته فيحمد الله تعالى على أمرين :

- **أولهما :** دفع ما كان يمكن أن يحدث من بلاء أكبر .
- **وثانيهما** : بقاء ما كان يمكن أن يزول من نعمة غامرة وفضل جزيل .

فهو ينظر إلى النعمة الموجودة قبل أن ينظر إلى النعمة المفقودة ، وينظر إلى البلاء المتوقع بجانب نظرة إلى البلاء الواقع ، ولا ريب أن هذا يحدث الارتياح والرضا في نفس المبتلى[1] .

وأخيراً : يقول الغزالي موجها المؤمن إلى ما ينبغي أن يكون عليه تجاه ما يصيبه من ابتلاء : ((في كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها :

أحدها : أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهي ، فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه ؟ فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا .

---

١ ـ الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٩٧

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الثاني : أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه ، ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه ، إذ قال : (اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني)[1] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم :

- إذ لم يكن في ديني .
- وإذ لم يكن أعظم منه .
- وإذ لم أحرم الرضا به .
- وإذ أرجو الثواب عليه .

الثالث : أن البلاء ربما كان عقوبة عاجلة لذنب وقع فيه الإنسان فلم لا يشكر الله تعالى على ذلك ، فإن مصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم ، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي ، إذ أسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذبين ، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(من أصاب في الدنيا ذنبا فعوقب به ، فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده)**[2] .

الرابع : أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب ، وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت ، ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة .

٢- قلت : في الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب (٨٠) رقم (٣٥٠٢) : قوله صلى الله عليه وسلم : ((اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك .... ولا تجعل مصيبتنا في ديننا .... الحديث)) قال : حسن غريب

١- الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الإيمان ، باب لا يزنى الزاني وهو مؤمن ، رقم (٢٦٢٦) ، وقال : حديث حسن غريب صحيح ، وابن ماجه في سننه ، كتاب الحدود ، باب الحد كفارة ، رقم (٢٦٠٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الخامس : أن ثوابها أكثر منها ، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة – على الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل ، بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة ، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار ، كان ذلك وبالا وبلاء عليه ، لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ، و ربما كان في المقام خطر عليه ، إذ قد يطلع عليه الملك فيعذبه ، فإذا أصابه ما يكره حتى نفره عن المقام ، كان ذلك نعمة عليه .

والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون منها من باب اللحد ، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة ، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر ، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ، ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة .

- حكى أن أعرابيا عزى ابن عباس على أبيه فقال :

اصبرنكن بك صابرين فإنمـــــا * صبر الرعية بعد صبر الراس**

خير من العباس أجرك بعده * والله خير منك للعبـــــــــاس**

فقال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيته [1] .

سابعا : الابتلاء وتكفير الذنوب

١- إحياء علوم الدين (١٢٨/٤ – ١٣١) بتصرف .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

انقسم العلماء في شأن الابتلاء وتكفير الذنوب إلى فريقين :

الفريق الأول :

وذهب إلى أن المؤمن يجزى بالمصيبة في ذاتها ، سواء صبر ورضي بقضاء الله أم لم يصبر ، وقد اعتمدوا في هذا على الأحاديث التي سبق ذكرها في أبواب البحث المختلفة ، ومنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : **[ما يصيب المسلم من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه]** [١].

وقوله ، وقد سئل صلى الله عليه وسلم : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : **(الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا أشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)** [٢].

فهذه الأحاديث وردت دالة على تكفير الذنوب ، وهي مطلقة لم تجعل ذلك مشروطاً بالصبر ، وإذا صبر كان له أجر الصبر فوق تكفير الذنوب بالمصيبة .

وممن قال بهذا الإمام القرافي ، فإنه قال : (فالمصيبة كفارة للذنوب جزما سواء اقترن بها السخط أو الصبر والرضى ، فالسخط معصية أخرى ، ونعني بالسخط عدم الرضى بالقضاء لا التألم من المقضيات ، والصبر من القرب الجميلة ، فإذا تسخط جعلت سيئة ثم قد تكون هذه السيئة قدر السيئة التي كفرتها المصيبة أو أقل أو أعظم بحسب كثرة السخط وقلته وعظم المصيبة وصغرها ، فإن المصيبة العظيمة تكفر من السيئات أكثر من المصيبة اليسيرة ، فالتكفير واقع قطعا تسخط المصاب أو صبر ، غير أنه إن صبر اجتمع التكفير والأجر ، وإن تسخط

١- رواه البخاري في صحيحه ، وسبق تخريجه .
٢- رواه الترمذي في سننه ، وسبق تخريجه .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فقد يعود الذي تكفر بالمصيبة بما جناه من التسخط أو أقل منه أو أكثر) [1].

وقال ابن حجر : (والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها ، وبالرضا يؤجر على ذلك ، فإن لم يكن للمصاب ذنب عوض عن ذلك من الثواب بما يوازنه) [2].

الفريق الثاني :

وذهب إلى أن الأجر على المصيبة إنما يكون إذا كان من المصاب صبر ورضا ، لأن الله لما ذكر أن المؤمنين يبتلون في أنفسهم بشئ من الخوف والجوع ، وفي أموالهم وثمارهم بالنقص في آية : ((ولنبلونكم بشئ من الخوف .... الآية)) ، ذكر أن البشارة للصابرين وأنهم هم المهتدون ، وهذا يقتضى أن الأجر للصبر لا للمصيبة في ذاتها ، ولأن الثواب والعقاب إنما يكون لكسب الإنسان وعمله ، وهذه البلايا ليست من كسبه ، والذي من كسبه إنما هو الصبر .

وقد استأنس أصحاب هذا الرأي أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم : **(إذ أحب الله قوما ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع)** [3]، أي من صبر فله الأجر لصبره ، ومن جزع فله العقاب لجزعه .

وبما رواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة الرفيعة فما يبلغها بعمله ، فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغها))** [4].

---

١ - الفروق للقرافي ٢٣٤/٤ ، وفتح الباري ١١٠/١٠

٢ - فتح الباري ١١٠/١٠

١- الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٨) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٩٤) : رواه أحمد ورجاله ثقات ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٨٣/٤) : رواه أحمد ورواته ثقات .

٢- قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٥/٢) : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومما يؤيد هذا الرأي أيضا قوله تعالى : ((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)) [1]، فالذين يصدقون في إيمانهم هم الذين يصبرون على الفتنة وهي الابتلاء بالمصائب ، والذين في مقابلتهم – وهم الكاذبون في إيمانهم – هم الذين لم ينالوا هذا الصبر .

وممن قال بهذا عز الدين بن عبد السلام ، فقد قال : ((ظن بعض الجهلة أن المصاب مأجور ، وهو خطأ صريح ، فإن الثواب والعقاب إنما هو على الكسب ، والمصائب ليست منها ، بل الأجر على الصبر والرضا)) [2].

<u>الرأي الراجح .</u>

لو نظرنا إلى الأحاديث الواردة في الموضوع وجدنا بعضها اقتصر على تشبيه المؤمن بالخامة والفاجر بالأرزة ، فهي خالية من ذكر الأجر ، وإن كانت تشعر بأسلوبها بأن المؤمن يؤجر على المصائب دون أن تشعر بأن ذلك مقيد بالصبر ، كحديثنا الذي نشرحه .

وبعض آخر صرح بأن الله يكفر عنه سيئاته بهذه المصائب ، وإن كان لم يقيد ذلك بما إذا صبر ، كقوله عليه السلام : **(ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر بها من خطاياه)** [3] ، وغير ذلك من الأحاديث التي قدمناها مماثلة له في التصريح بالتكفير ، ومثل هذه الأحاديث يجارى حديثنا ، لأن حديثنا أعطى هذا المعنى إشارة وهذه الأحاديث أعطته صراحة .

٣- سورة العنكبوت / ٢- ٣

١ - فتح الباري ١٠/١٠٩ ، ١١٠

٢- سبق تخريجه .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفضلاً عن هذا فإن بعض الأحاديث ذكرت مع التكفير رفع الدرجات ، كما روى مسلم عن عائشة أن شبابا من قريش دخلوا عليها وهم يضحكون فقالت : ما يضحككم ؟ قالوا : فلان خر على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب ، فقالت : لا تضحكوا ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **(ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت** عنه بها **خطيئة)**[1] ، فهذه الرواية صريحة في رفع الدرجات مع التكفير ، ولكن حديث عائشة هذا روى من طريق آخر : (أو محيت) بدل (ومحيت) ، وعلى هذه الرواية الثانية يكون صريحاً في الأجر : برفع الدرجات أو محو الخطايا ، ولا حرج على فضل الله أن يجمع بين الأمرين ، وتكون الروايتين دالتين على أمرين مختلفين لا تناقض بينهما ، ويكون الحديث قد ورد في حالين فذكر في كل حال ما يكون مناسبا لها .

وبعض الأحاديث قد ورد مقيداً للأجر ولكنه لم يحدده، فجعله يشمل ما إذا كان محواً للسيئات فقط، أو مع رفع الدرجات، ولكنه قيد هذا الأجر بصبر المبتلى ، كحديث : **(إذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ومن جزع فله الجزع)** [2] .

أي له الأجر على الصبر والعقاب على الجزع ، وهذا يدل على أنه لا بد للأجر من الصبر ، والأجر يحتمل الأمرين السابقين .

والمتبع في مثل هذا أن يحمل المطلق على المقيد ، ولاسيما إذا وجدت قرائن تساعد على ذلك ، والقرائن على ذلك متوافرة في الآيات القرآنية التي ذكرناها آنفا .

١- صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ...، رقم (٦٥٦١)
٢ - الحديث سبق تخريجه قريباً .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى : ((وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)) [1]، ولكن هذا يكون بالنظر إلى عدل الله ، وأنه لا يظلم مثقال ذرة ، أما إذا نظرنا إلى معين فضله الذي لا يبُلغ مداه فإننا نقول : إنه سبحانه قد يثيب على المصيبة ذاتها وإن لم يصاحبها صبر المصاب ، بشرط ألا يبدو منه ما يدل على سخط لقضاء الله كما يحصل من بعض الناس مما نشاهده ونسمعه : بأن يقول : لا حق لك يا رب في هذا ، وإن فلانا كان أولى مني بهذه المصائب ، أو أن يعرض عن عبادة ربه وطاعته ، فإن مثل هذا يكون حكمه حكم المنافقين الذين إن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، وهم الذين قال الله فيهم : ((ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة))[2] .

ولتتصور كيف يكون الإنسان في منزلة بين الصبر والسخط أقول لك : بأن يكون متألما مما ناله ، ولكن لا يكون منه ما يدل على سخط ، فلا يتفوه بما يكون اعتراضا على الله في تصرفه ولا يعرض عن عبادة ربه ولا ما يطلب منه [3].

ثامنا : الذنوب التي يكفرها الابتلاء

اختلف العلماء في شأن الذنوب التي تكفرها المصائب ، فهل تكفر المصائب الذنوب كلها : صغيرها وكبيرها ؟ أم إنها تكفر الصغائر دون الكبائر ؟

قال ابن حجر : [خص الجمهور ذلك بالصغائر للحديث الذي تقدم التنبيه عليه في أوائل الصلاة : **((الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن ، ما اجتنبت**

---

١ - سورة النجم / ٣٨

٢- سورة الحج / ١١

٣- انظر : أحاديث مختارة للشيخ الزفزاف ص ٧٨ ، فتح الباري ١٠/ ١٠٩

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الكبائر)) فحملوا المطلقات الواردة في التكفير على هذا الحديث الذي ورد فيه التقييد بغير الكبائر][1].

ولكنه هو يرى عدم التقييد ، إذ يقول : [ويحتمل أن يكون معنى الأحاديث التي ظاهرها التعميم أن المذكورات صالحة لتكفير الذنوب فيكفر الله بها ما شاء من الذنوب ويكون كثرة التكفير وقلته باعتبار شدة المرض وخفته][2] .

والذي يظهر لي – والله أعلم – عدم حمل الأحاديث المطلقة هنا على الحديث المقيد الذي استند إليه الجمهور ، لأن الأحاديث التي وردت في التكفير خاصة بما يصيب الإنسان من مصائب ، وأن هذه المصائب مكفرة ، أما حديث الجمهور الذي ورد فيه التقييد فهو خاص بفرائض كلف الإنسان بأدائها ، فالموضوع مختلف ، وحمل المطلق على المقيد إنما يكون إذا تلاقى الموضوعان .

تاسعا : هل يستدعي المؤمن الابتلاء

إذا كان الابتلاء يحقق حكماً عظيمة ، ويعود على صاحبه بمنافع جمة كما قدمنا ، فهل للمؤمن أن يستدعي البلاء ، ويعمل على وقوعه ، ولا يحرص على دفعه لتطول مدته ، وينتفع بآثاره ، ويثاب عليه ؟

والجواب : لا يجوز ذلك لعدة أمور :

أولها : أن المؤمن مطالب بتوقي الأذى ، ولا يجب عليه مقابلته ، أو قصد التعرض له ، بل عليه أن يتوقاه حسب الظروف والأحوال ، ومن ذلك لقاء العدو ، قال صلى الله عليه وسلم : **(أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا)**[3] .

١- فتح الباري ١١٣/١٠ بتصرف

٢ - فتح الباري ١١٣/١٠

١- أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب لا تتمنوا لقاء العدو ، رقم (٣٠٢٤) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب كراهة تمنى لقاء العدو ، رقم (٤٥٤١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال ابن بطال : [نهى الرسول أمته عن تمنى لقاء العدو ، ولأنه لا يعلم ما يئول أمره إليه ولا كيف ينجو منه ، وفي ذلك من الفقه : النهى عن تمنى المكروهات ، والتصدي للمحذورات . ولذلك سأل السلف العافية من الفتن والمحن ، لأن الناس مختلفون في الصبر على البلاء ، ألا ترى الذي أحرقته الجراح في بعض المغازى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل نفسه ، وقال الصديق : (لأن أعافى فأشكر أحب إلّي من أن ابتلى فأصبر) [1]] .

وقال صلى الله عليه وسلم : **(سلوا الله المعافاة ، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة) [2].**

ثانيا : أن الابتلاء صعب على النفس ، فلا يجوز الحرص عليه ، ولا الرغبة فيه ، لذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعيذ منه في دعائه فيقول : **(أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة)[3].**

ثالثا : أن الابتلاء مجهول العاقبة ، فقد يحس المؤمن من نفسه القدرة على الثبات ، ومن ثم لا يبالى بالابتلاء ، فإذا نزل به ضعف عن التحمل ، ووقع في الافتتان ، فإنه جاء في الحديث : **(لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، قالوا : وكيف يذل نفسه ؟ قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق)[4].**

رابعا : أن الله جعل للمكره مندوحة أن يقول كلمة الكفر تخليصا لنفسه من الأذى والتلف ، فكيف يعرض نفسه لهما ، قال تعالى : ((إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله

١- شرح ابن بطال للبخاري (٥/ ١٨٥)

٢- أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الدعاء ، باب الدعاء بالعفو والعافية ، رقم (٣٨٤٩) ، وقال العراقي في المغنى بها مش الإحياء (١٣١/٤) إسناده جيد .

٣ - أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٨١) ، وقال العراقي في المغنى (١٣١/٤) إسناده جيد .

٤- أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الفتن ، باب لا يتعرض من البلاء لما لا يطيق ، رقم (٢٢٥٤) ، وقال : حسن غريب .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأولئك هم الكاذبون ، من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان))(١).

قال القرطبي : [(أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان [٢])].

خامسا : [أن الله شرع الهجرة من دار الكفر تخلصا من الأذى ، قال تعالى : ((ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما)) [٣].

فقد هاجر الصحابة رضي الله عنهم من مكة إلى الحبشة حيث الأمان فراراً من العذاب الذي قد يصبهم من جراء البقاء في مكة ، والتعرض للابتلاء ، قال القرطبي : (الفرار من الأذية في البدن ... فضل من الله أرخص فيه ، فإذا خشي على نفسه فقد أذن الله في الخروج عنه والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور)[٤].

سادسا : أن النفوس فطرت على الحذر من دواعي المرض ، وتحاشي المصائب ، ودفعها بالعلاج ، ومن فعل ذلك لم يقدح في إيمانه ، بل من الإيمان اتخاذ الأسباب الواقية من الوقوع في البلاء والدافعة له[٥] .

ويتحصل من هذه الأمور أنه مهما يكن للابتلاء من حكم ومنافع فإنه ليس أفضل للمؤمن في الدنيا من العافية ، ذلك أن البلاء كما يقول الغزالي لا يصير نعمة إلا : (باعتبارين :

١- سورة النحل / ١٠٥- ١٠٦

٢ - الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٨٢)

٣ - سورة النساء / ١٠٠

٤ - الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٣٥٠)

١ - انظر : مجلة جامعة الإمام ، عدد ١٩ ، جمادى الأولى ١٤١٨هـ ص ١٦٨ -١٧٠ ، بحث " الابتلاء في حياة المؤمن " للدكتور أحمد الحليبي .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أحدهما : بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين ، والآخر ، بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب ، فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ، ودفع ما فوقه من البلاء ، ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته ، فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر) [1].

عاشراً : الثمرات المجتناة من المثل

١- مشروعية ضرب الأمثال لما تفيده من تقريب المعنى للنفس ، ولما تشتمل عليه من تذكير ووعظ ، ولما تحتويه من حكم وأحكام ، وحسب الأمثال مكانة تنويه القرآن بها وإكثارة منها ، وقول الله فيها : (وما يعقلها إلا العالمون) .

٢- أن يعلم المؤمن أن الحياة الدنيا لا تسير على نسق واحد ، ولا تتجه وجهة واحدة ، وإنما هي دول ، إن أقبلت يوما أدبرت شهراً ، وإن أغنت ساعة أفقرت دهراً ، فدوام الحال من المحال .

لكل شئ إذا ما تم نقصـــــــان * فلا يغر بطيب العيش إنســـان**

---

٢ - إحياء علوم الدين (٤ / ١٣١)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هــي الأمور كما شاهدتها دول * من سره زمـن ساءته أزمـــــــــان**

وإذا كـان ذلـك كـذلك ، فعليـه أن يرضــى بقـسم الله لـه فيهـا ، فالرضــى بقـسم الله هـو الغنــى :[إرض بمـا قـسم الله لـك تكـن أغنـى النـاس] .

٣- أن يعلم المؤمن أن ما يصيبه من بلاء إنما هو تمحيص لقلبه ، وتطهير لذنبه ، ورفع لشأنه ، وإعلاء لقدره ، وليس من باب غضب الله وسخطه ، وعليه فليردد المؤمن إذا ما أقبلت رياح الأقدار قول الصالحين الأبرار : [اللهم لا كرب وأنت رب] .

٤- أن يعلم المؤمن أن تفاوت الناس في البلاء إنما هو بحسب ما تحتويه قلوبهم من إيمان ، وما تنفعل به جوارحهم من طاعة ، فعلى قدر الدين يكون الابتلاء ، وأعظم النـاس بـلاء الأنبيـاء ، ومـن يلـق مـن الـبلاء الكثيـر فلـيعلم أن حظـه مـن إرث النبـوة كبير .

٥- أن يعلم الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بهـا – من الكفـار والمنافقين لأنها أناخت ببابهم ، ووسعت عليهم دون غيرهم ، أن ذلـك لا يـدوم ، فعمـا قليـل يـزول ، وإذا مـا حـل الأجـل وحصدهم منجل الموت ، فيومها يقول أحدهم : ((يـا ليتنـي قدمت لحياتي ، فيومئذ لا يعذب عذابـه أحد ، ولا يوثـق وثاقـه أحد))[١] .

١- سورة الفجر / ٢٤-٢٦

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مصادر البحث

١- القرآن الكريم .

٢- الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي = عبدالرحمن بن أبي بكر ت (٩١١هـ) ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة : مكتبة المشهد الحسيني ، ط(١) ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م .

٣- أحاديث مختارة للشيخ محمد الزفزاف ، ط : مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ط : الأولى ١٣٧١هـ .

٤- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان للأمير علاء الدين الفارسي ت (٧٣٩هـ) بتحقيق شعيب الارناءوط ، طبعة : مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٥- الأدب المفرد للإمام البخاري = محمد بن إسماعيل ت (٢٥٦هـ) ، طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة ١٩٧٩م .

٦- أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية = محمد بن أبي بكر ت (٧٥١هـ) بتحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، طبعة : مكتبة الكليات الأزهرية .

٧- اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ، تحقيق ناصر الدين الألباني ، ط : المكتب الإسلامي ، بيروت ١٣٩٧هـ .

٨- الأمثال في الحديث النبوي الشريف ، للدكتور محمد جابر فياض العلواني ، طبعة : مكتبة المؤيد الرياض ، ط ١ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

٩- البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي = محمد بن عبدالله ت (٧٩٤هـ) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة : مكتبة دار التراث .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٠- البيان والتبيين للجاحظ = عمرو بن بحر ت (٢٥٥هـ) ، بتحقيق : عبدالسلام هارون ، طبعة : دار الفكر ، الطبعة الرابعة .

١١- تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ، طبعة : دار الكتاب العربي ، بيروت ط(٤) . ١٣٩٤هـ /١٩٧٤م .

١٢- تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، تعريب الدكتور / محمود فهمي حجازي ، طبعة إدارة الثقافة والنشر بجامعة محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

١٣- التدريس في مدرسة النبوة للدكتور / سراج محمد عبدالعزيز وزان ، طبعة دعوة الحق ، إصدار رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، العدد ١٣٢. ذو الحجة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

١٤- تذكرة الدعاة للإستاذ البهي الخولي ، طبعة : دار التراث ، ط(٨) . ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

١٥- الترغيب والترهيب للمنذري = عبدالعظيم بن عبد القوى ت (٦٥٦هـ) بتحقيق : مصطفى محمد عماره ، طبعة : دار الفكر ط١ . ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

١٦- تفسير الفخر الرازي = محمد ضياء الدين ت (٦٠٤هـ) ، طبعة : دار الفكر ، ط٣ . ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

١٧- تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا ، طبعة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م .

١٨- تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ، بتحقيق الدكتور على محمود مقلد ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٨٦م

١٩- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري = حسن بن عبدالله ت (٣٩٥هـ) ، مطبوع على هامش مجمع الأمثال .

٢٠- دراسات في القرآن والسنة للدكتور أحمد جمال العمري ، طبعة : دار المعارف .

٢١- دلائل النبوة للإمام البيهقي = أحمد بن الحسين ت (٤٥٨هـ) ، بتحقيق عبدالمعطي قلعجي ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

٢٢- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة للإمام السيد محمد بن جعفر الكتابي ، طبعة : مكتبة الكليات الأزهرية .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٢٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي ، ط : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٢٤- زهر الأكم في الأمثال والحكم للإمام الحسن اليوسي ، ط : دار الهلال ، بيروت .

٢٥- سنن الترمذي = أبو عيسى بن سورة ت (٢٧٩هـ) بتحقيق : أحمد محمد شاكر ، طبعة مصطفى الحلبي ، ط٢ . ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٢٦- سنن الدرامي = عبدالله بن عبدالرحمن ت (٢٥٥هـ) بتحقيق : فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي ، طبعة : دار الريان للتراث ، ط١ . ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

٢٧- سنن أبي داود = سليمان بن الأشعث ت (٢٧٥هـ) ، بتحقيق صدقي محمد جميل ، طبعة : دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

٢٨- سنن ابن ماجه = محمد بن يزيد القزويني ت (٢٧٣هـ) بتحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، طبعة : دار إحياء التراث العربي .

٢٩- سنن النسائي = أحمد بن شعيب ت (٣٠٣هـ) بشرح السيوطي والسندي ، طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ . ١٣٤٨هـ / ١٩٣٠م .

٣٠- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح للطيبي = الحسين بن عبدالله ت (٧٤٣هـ) بتحقيق الدكتور عبدالحميد هنداوي ، طبعة : مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، ط١ . ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٣١- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج ت (٢٦١هـ) ، بتحقيق الشيخ محمد فؤاد عبدالباقي ، طبعة دار الحديث ، ط١ . ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

٣٢- ضرب الأمثال في القرآن – أهدافه التربوية وآثاره لعبدالمجيد البيانوني ، ط : دار القلم – دمشق ١٤١١هـ .

٣٣- ظاهرة الأمثال في الكتاب والسنة وكلام العرب وآثارها في تربية الجيل المسلم ، لمصطفى عيد الصياصنة ، ط : دار المعراج الدولية للنشر ، الرياض ١٤١٢هـ .

٣٤- عارضة الأحوذى شرح جامع الترمذي للإمام ابن العربي المالكي ت (٥٤٣هـ) ، طبعة دار الفكر ، سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٠م .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٣٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، تحقيق ، محب الدين الخطيب ، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي ، طبعة : المكتبة السلفيه ، القاهرة ، ط٢ . ١٤٠٧هـ .

٣٦- فجر الإسلام لأحمد أمين ، طبعة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٦ ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م .

٣٧- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي = محمد بن عبد الرؤوف ت (١٠٢٥هـ) ، طبعة : دار الفكر .

٣٨- قطوف لغوية لفتحي الخولى ، ط : مكتبة الإرشاد – جدة ، ط : الأولى ١٩٧١م .

٣٩- كتاب أمثال الحديث للقاضي أبي محمد الحسن الرامهرمزى ت (٣٦٠هـ) بتحقيق الدكتور عبدالعلي عبدالحميد الأعظمى ، طبعة : الدار السلفية ، بومباى ، الهند .

٤٠- الكشاف للزمخشري = محمد بن عمر ت (٥٣٨هـ) ، بتحقيق : محمد الصادق قمحاوي ، طبعة الحلبي ، الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

٤١- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني = إسماعيل بن محمد ت (١١٦٣هـ) ، طبعة : مكتبة الغزالي ، دمشق ، مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت .

٤٢- لسان العرب لابن منظور = جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ت (٧١١هـ) طبعة مصورة على طبعة بولاق .

٤٣- مجمع الأمثال للميداني = أبو الفضل أحمد بن محمد ، طبعة ، مطبعة فؤاد بي بان وشركاه ، بيروت ١٩٦٢م .

٤٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي = على بن أبي بكر ت (٨٠٧هـ) ، طبعة مؤسسة المعارف ، بيروت . ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٤٥- مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي ، جمع وتحقيق أبي مصعب طلعت الحلواني ، ط : الفاروق الحديثة – القاهرة ١٤٢٣هـ .

٤٦- المزهر في علوم اللغة للسيوطي ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وزملاؤه ، طبعة دار التراث .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٤٧- المستدرك للحاكم النيسابوري = محمد بن عبدالله ت (٤٠٥هـ) طبعة : دار الكتاب العربي .

٤٨-مسند أحمد بن حنبل ، ت (٢٤١هـ) ، طبعة : المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٥ . ١٤٠٥هـ .

٤٩- معالم السنن للخطابي ومعه مختصر سنن أبي داود للمنذري ، وتهذيب السنن لابن القيم ، بتحقيق ، أحمد محمد شاكر ، ومحمد حامد الفقي ، طبعة : دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٠ هـ /١٩٨٠م .

٥٠- المعجم الكبير للطبراني = أبو القاسم سليمان ت (٣٦٠هـ) بتحقيق : حمدى عبدالمجيد السلفى .

٥١- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ت (٣٩٥هـ) بتحقيق : عبدالسلام هارون ، طبعة الجيل ، بيروت ، ط ١ . ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

٥٢- المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثالثة .

٥٣- المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار لتخريج ما في الإحياء من الأخبار للعراقي ، بهامش إحياء علوم الدين ، طبعة : دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٥٤- مفتاح العلوم للساكي = أبو يعقوب يوسف بن محمد بن على ، طبعة : المطبعة الأدبية ، الطبعة الأولى .

٥٥- المقاصد الحسنة للسخاوى = محمد بن عبدالرحمن ت (٩٠٢هـ) طبعة : مطبعة : دار الأدب العربي ، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

٥٦- من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي ، طبعة نهضة مصر ، الفجالة ، الطبعة الثالثة .

٥٧- من روائع الأدب النبوي للأستاذ كامل سلامة الدقس ، ط : دار الشروق – جدة ، ط : الثانية .

٥٨- من كنوز السنة للأستاذ محمد على الصابوني ، ط : مكتبة الغزالي – دمشق ١٤٠١هـ .

٥٩- المنهاج شرح مسلم بن الحجاج للنووي ، طبعة : مكتبة : مناهل العرفان ....

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٦٠- موارد الظمآن إلى زوائد حبان للهيثمي ، بتحقيق : محمد عبدالرازق حمزة ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

٦١- موسوعة أخلاق القرآن للدكتور أحمد الشرباصي ، طبعة : دار الرائد العربي ، بيروت .

٦٢- نظرات فقهية وتربوية في أمثال الحديث ، للدكتور عبدالمجيد محمود عبدالمجيد ، طبعة مكتبة البيان ، الطائف ، ط ٢ (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) .

٦٣- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير = مجد الدين المبارك بن محمد ت (٦٠٦هـ) بتحقيق : محمود محمد الطناحي ، طبعة : مطبعة الحلبي ١٩٦٣هـ .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
o مقدمة	٥
o تعريف المثل	١٤
o الفرق بين الحكمة والمثل	١٨
o أنواع الأمثال في السنة النبوية	٢٢

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

o معنى ضرب الأمثال	٢٥
o أهمية الأمثال	٢٧
o الأمثال واستنباط الأحكام الشرعية	٤٧
o الأثار التربوية للأمثال	٥٢
١- المثل تجسيد بالمحسوس	٥٢
٢- إيضاح المعاني وتقريرها	٥٦
٣- تقريب البعيد وجعل المتخيل متحققها	٦٠
٤- تقريب الأحكام والوقائع بذكر نظائرها	٦٢
٥- إبراز الفكرة بما يقابلها ويضادها	٦٤
٦- الترغيب في الفضائل	٦٧
٧- التنفير من الرذائل	٧٠
٨- مدح الصالحين وذم الفاسقين	٧٣
٩- غرس مفهوم التوافق بين القول والعمل	٧٦
١٠- التهوين من شأن الدنيا	٨٠
o المؤلفات في الأمثال	٨٤
o الدراسة التحليلية للأمثال النبوية	٩١
o المثل الأول	٩٢
o المباحث اللفظية	٩٤
o بيان التمثيل في الحديث	١٠٢
o موضوع المثل	١١٥
o الابتلاء سنة إلهية	١١٦
o مظاهر الابتلاء	١٢٠
o أقسام الناس في الابتلاء	١٣٢
o المؤمن مبتلى	١٤٠

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

o الحكمة من ابتلاء المؤمنين	١٥٠
o موقف المؤمن من الابتلاء	١٦٢
o الابتلاء وتكفير الذنوب	١٧٠
o الذنوب التي يكفرها الابتلاء	١٧٦
o هل يستدعي المؤمن الابتلاء	١٧٧
o الثمرات المجتناة من المثل	١٨١
o أهم المصادر والمراجع	١٨٣
o فهرس الموضوعات	١٩٠

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com